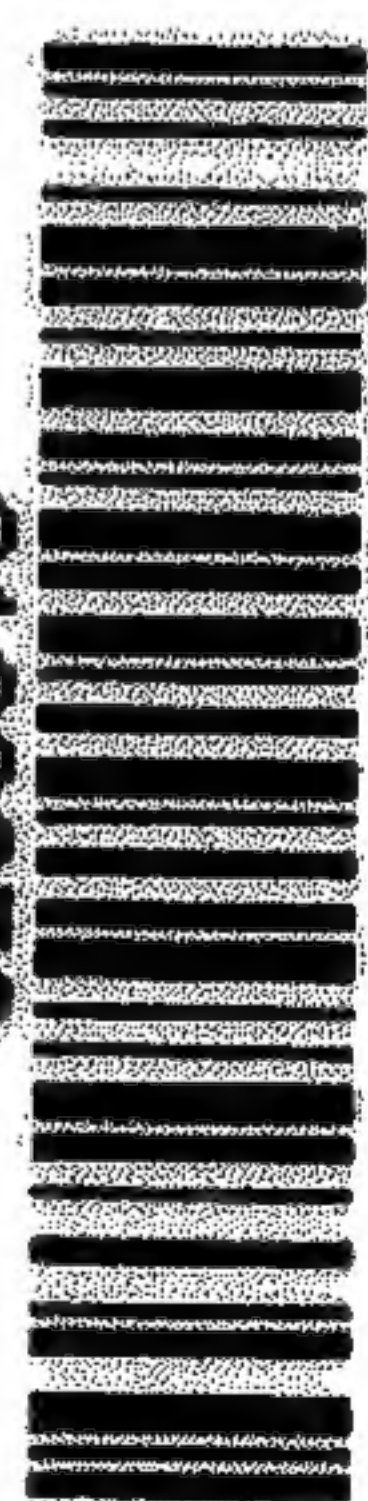


أبو القاسم محمد كرو

عصر القبروان



Bibliotheca Alexandrina



0108850

961.1

له رو

خ

عصر القبروان



دمشق — أوتوستراد المزة

هاتف

٢٤٤١٢٦ — ٢٤٣٩٥١ — ٢١٣٨٢١

تلكس: ٤١٢٠٥٠

ص.ب: ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

ربع الدار مخصص

لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

أبو القاسم محمد كرو



and Organization of the Alexandria Library (GOAL)
The National Library

عصر القبروان

تحت إشراف
961.1
لـ ١٧٤٤
٢٤٨٨٥
رقم المكتبة

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

الطبعة الأولى تونس 1973

الطبعة الثانية دمشق 1989

مقدمة

لم يلمع في تاريخ المغرب العربي اسم مدينة من مدنه ولا ازدهر عصر من عصوره بعد الفتح الاسلامي كما لمع اسم مدينة القيروان وازدهر عصرها الذهبي مدة اربعة قرون كاملة ، ابتداء من تأسيسها على يد عقبة بن نافع سنة خمسين للهجرة وانتهت بانهارها السياسي والعلمي والاجتماعي على ايدي القبائل الزاحفة من صعيد مصر عام 444 هـ وهي القبائل التي ارسلها الخليفة الفاطمي لتنتقم له من الصنهاجيين الذين قطعوا جميع الروابط السياسية والدينية التي كانت تربطهم بدولة الفاطميين .

وحضارة القيروان التي وضع اسسها واحكم دعائمها امراء الدولة الاغلبية ودعم كيائها واحسن رعايتها خلفاء الدولة الفاطمية ، وبلغت شأوها في التقدم والازدهار على ايدي الامراء الصنهاجيين ، حضارة القيروان هذه قد اقترنت في عصورها المختلفة بسلسلة لامعة من الاسماء الكبيرة الشهيرة التي اضاءت آفاقها الادبية والعلمية والسياسية والعسكرية فكانت امجادا من القوة تتحرك على الارض ، ارض افريقيا وآسيا واوروبا ، وكانت هداية روحية واشعاعا فكريا لعديد الاجيال والشعوب العربية والاسلامية ، وكانت نفوذا وسلطانا باسطا جناحيه على البحر المتوسط وما وراء سواحه من الشعوب والاقطار .

وقد تميز كل عصر من عصور حضارة القيروان بعدد من الاسماء البارزة التي طبعت عصرها بطابع شخصيتها وميزته عما سواه بما تميزت به عن المعاصرين لها في السياسة او الدين او العلم او الادب او غيرها من حقول الحياة والفكر والعلم .

وكلنا يذكر اسم المعز لدين الله الفاطمي كالمع اسم ازدهر به عصر القيروان في عهد الفاطميين .

وكلنا يذكر اسم المعز بن باديس الصنهاجي كابهي واكبر رمز لما بلغته القيروان من حضارة في عصر الصنهاجيين .

وكلنا يذكر ان كلا الاميرين قد اقترن عصره واسمه بامجاد شامخة في كل الميادين ، وان كلا منهما قد تميز عصره بطابع خاص في السياسة والثقافة ؛ فكان عصرهما عصرا يمكن وصفه بانه عصر المعز الفاطمي او عصر المعز الصنهاجي ، كما يقال مثلا في تاريخ اوروبا الحديث عصر لويس الرابع عشر وعصر نابليون ، وذلك لما كان لكل من هذه الاسماء من تأثير شخصي مباشر في حياة وافكار معاصريهم وشعوبهم .

ولئن كتبت عشرات بل مئات الكتب عن لويس الرابع عشر وعصره وعن حياة نابليون وأعماله وأثره في الحياة الأوروبية فإن عصر القيروان عامة ، وما تميز به كل عهد من عهود حضارتها لم يكتب عنه حتى الآن سوى عدد يسير جدا من الكتب الجانبية التي عالجت نواحي متفرقة من حضارة القيروان ورجالها البارزين ؛ فليس يوجد حتى الآن أى كتاب جامع عن حضارة القيروان ولا أى كتاب خاص بشخصية من شخصياتها الكبيرة اللمعة .

وباستثناء عدد قليل من المقالات أو الرسائل الصغيرة التي كتب أكثرها منذ أكثر من عشرين سنة خلت فإننا لا نكاد نعثّر على شيء يذكر في هذا الميدان (1) وهذا الفراغ الأدبي والفكري الذي يكتنف امجد عهد في تاريخ إفريقية العربية ، هو الحافز الأول لنا على اخراج هذه الدراسة عن جانب من جوانب الحياة الثقافية لعصر القيروان الذهني .

وانها لبداية جديدة نحو عمل متواصل نرجو ان نوفق الى القيام بجهد منه ، وان يقوم غيرنا بما يسطاع في هذا الميدان . . .
والمهم دائما ان نبدا السير ، وان نواصله فردا بعد فرد ، وجيلا بعد جيل ، فهذه هي سنة التقدم وسبيل الاحياء والانبعاث .

وحسبنا ان نسهم بقسط ضئيل في توعية الاجيال الصاعدة نحو ادراك تاضيها المجيد ، وتراثها الخالد حتى تجدد حضارة الماضي وثقافة الاجداد بحضارة اشمخ وثقافة ازهى واعمق .

اننا في هذا الكتاب لم نتجاوز الناحية الادبية ، الا حيث يقتضى البحث ان نلم بجوانب اخرى لاتمام الصورة ، وتكميل الاطار التاريخي .

وقد اضفنا للدراسة في قسمها الثاني نماذج من افذاذ ادباء القيروان الذين تركوا دويما زالا صلبا يتردد في انحاء العالم العربي رغم مرور الف عام على تاريخهم ، وهم ابن هاني ، متنبى المغرب ، وابو اسحاق الحصري صاحب زهر الآداب وابن رشيق صاحب العمدة ، وابن شرف صاحب رسائل الانتقاد . . . وحسبك هؤلاء برهانا على ما كان للقيروان من مجد ادبي سامق ومن حضارة راسخة كانت مشعلا لامم واقطار متعددة طيلة اربعة قرون كاملة .

واننا نرجو ان نكون قد احسنا اختيار الموضوع وعرضه ، قبل ان نكون محسنين في اى ناحية اخرى منه .

ابو القاسم محمد كرو

تونس 15 / 8 / 1973

(1) انظر هذه الرسائل في باب المراجع ، ومن أهمها كتب ح . ج . عبد الوهاب والميمنى .

القسم الأول

مصر القبروان

١ - المغرب والاسلام

أ - بلاد المغرب :

كان العرب المسلمون عندما فتحوا بلاد المغرب العربي يقسمون هذه البلاد الى ثلاثة اقطار هي :

١ - المغرب الأدنى : ويطلقون عليه احيانا كثيرة اسم افريقية وهو يشمل القطر التونسي بكامله وجزءاً من الجزائر واقليم طرابلس الغرب بما في ذلك ولاية برقة على حدود مصر الغربية .

٢ - المغرب الاوسط: ويشمل ما يعرف اليوم باسم القطر الجزائري باستثناء بعض المناطق على حدود تونس الغربية .

٣ - المغرب الاقصى : ويشمل القطر المراكشي في حدود تقرب بما هو عليه اليوم .

ومن الواضح ان الحدود بين هذه الاقطار الثلاثة لم تكن مدققة حتى في عصر ملوك الطوائف في هذه البلاد وبالأحرى أنها لم تكن موجودة في عهود الحمادها

مع بعضها تحت حكم دولة من دولها القوية ، كالموحدين والفاطميين ، وكذلك الحال عندما كانت تابعة للخلافة الاموية في دمشق ثم للخلافة العباسية في بغداد الى عهد الخليفة هارون الرشيد ، الذي منح الاستقلال الداخلي لهذه البلاد تحت حكم ابراهيم بن الاغلب ، وكان هذا قد عرض على الخليفة ان يتولى حكم امارة افريقية مقابل اسقاط « المائة الف دينار التي كان يأخذها امير افريقية من امير مصر ، اعانة على المصالح ، وان يدفع للخليفة اربعين الف دينار في كل سنة^(١) » .

وبالطبع فان هناك اسباباً حملت الخليفة على هذا الاجراء ؛ منها وجود دولة اموية منافسة في الاندلس ، ومنها بعد هذه البلاد عن مركز الخلافة . ويظهر ان احوال البلاد المغربية الاقتصادية في هذا العصر بالذات قد صارت جيدة لان الخلافة كانت تساعد افريقية باعانة مالية سنوية ، وليس كذلك الحال في اقاليم الخلافة الاخرى ، اذ كانت هي التي تدفع للخلافة اموالاً سنوية^(٢) .

ب - من هم البربر ؟

عندما دخل العرب المسلمون الى بلاد المغرب ، اخذوا كلمة بربر عن حكام البلاد السابقين ، وهم الرومان الشرقيون ، واطلقوها على سكان البلاد الاصليين فبقيت شائعة عنهم الى اليوم . واصل الكلمة يوناني ، اذ كان اليونان يطلقونها في اول الامر على كل من ليس يوناني كما كان العرب يطلقون كلمة اعجمي على كل من ليس عربياً ، واخذ الرومان هذه الكلمة عن اليونان بنفس المعنى ولكنهم لم يطلقوها على اليونان ، ثم اخذت الكلمة تضيق حتى انحصرت شيئاً فشيئاً في شعب

(١) تاريخ ابن ابي الضياف .

(٢) كان هذا قبل عهد الاغالبة ، ويحتمل كثيراً ان العباسيين ارادوا به المحافظة على ولاء الامراء لهم . لأن الحياة الاقتصادية بالافريقية قد ازدهرت ايما ازدهار من منتصف القرن الثاني ، وزاد ازدهارها بعد استقرار حكم الاغالبة .

شمال افريقيا في عهد الرومان^(١) .

والبربر هم اقدم الجماعات البشرية المعروفة التي استوطنت شمال افريقيا منذ عصور عريقة في التاريخ . ولم يتفق الباحثون والمؤرخون على اصل البربر : من هم ومن أين أتوا ؟ . وان كان المرجح اليوم بل المؤكد عند العلماء الثقات انهم من آسيا ، ومن اصل قد يكون عربياً نزح في هجرات متتالية الى بلاد المغرب العربي .

وقد لا يستبعد ان يكون البربر فرعاً من العرب البائدة ، التي لا يعرف عنها شيء كثير في التاريخ ، كما يحتمل ان يكونوا من عرب اليمن وجنوب شبه جزيرة العرب ، الذين تدفقوا بعد انهيار سد مأرب ، وكانوا يرقدون الآفاق البعيدة حتى قبل انهيار السد .

ومهما تكن اتجاهات البحث ونتائجه : فان من المفيد هنا ان نستضيء بآراء بعض الباحثين والمؤرخين القدماء والمعاصرين عربياً وأجانباً لتبين من خلالها بعض معالم الحقيقة حول البربر أجدادنا الاولين :

اما المسعودي فذكر انهم من غسان ، وغيره يقول انهم من لحم وجسد ام . وقال الطبري انهم اخلاط من كنعان والعماليق .. وقال آخرون انهم يمنيون .. وقيل انهم من ولد حام بن نوح ، ويقول نسابو البربر انهم من مضر وانهم كانوا يسكنون الشام ويحاورون العرب في المساكن ، ويشاركونهم في المياه والمراعي والمسارح ويصهرون اليهم ، ثم رحلوا الى مواضعهم التي استقروا بها اخيراً . وقد فند ابن خلدون كل هذه الاقوال ما عدا الرأي القائل انهم من ولد (كنعان ابن حام بن نوح) .

ويرجح ابن خلدون ان ادعاء نسابي البربر كاذب . قال : « والحق الذي

(١) تاريخ العرب - المطول - ج ٢ ص ٨٣٧ .

تشهد به المواطن والمجتمعة انهم بمعزل عن العرب الا ما تزعمه نسبة البربر من
صنهاجة ولوانة .

وعندما نكسب العرب في الاندلس ، وبدأ جلاؤهم عنها الى اقطار المغرب ،
ذكر ابن خلدون ان البربر لم يتأثروا بتقدم العرب الوافدين من الاندلس ، ويعلل
ذلك بتعليل ليس في صالح البربر ، كما انه يعطينا دليلاً على ان ابن خلدون ليس
متعصباً للبربر^(١) وان ما قاله فيهم ليس احسن مما قاله في الاعراب ان لم يكن
أسوأ منه . قال ابن خلدون :

« وألفت الاندلس بأفلاذ كبدا من اهل تلك المملكة (يريد المملكة
العربية) بالجللاء الى افريقية ، ولم يلبثوا ان انقرضوا ، وانقطع سند تعليمهم في
هذه الصناعة (يقصد العربية) لفسر قبول اهل العدو لها ، وصعوبتها عليهم ،
وعوج ألسنتهم ورسوخهم في العجمة البربرية^(٢) . »

اما المؤرخ الفرنسي قوستاف لوبون فانه قد ذكر رأياً متزنأ تبدو عليه سمة
البحث العلمي النزيه ، وذلك بعد ان أشار الى ان البربر قد تدفقوا في هجرات
قديمة الى بلاد المغرب وقال عن موطن البربر الاصيل والطريق التي سلكوها الى
هذه البلاد ، ما نصه :

« ويمكننا ان نأتي بافتراضات معقولة عن الامكنة التي صدرت عنها تلك
الهجرة فنقول : ان اولئك المهاجرين لم يأتوا من الجنوب^(٣) الذي لا يرى فيه
غير الزنوج ، ولا من الشمال الذي لم يكن الا بجزأ خضماً لم يفكر الاقدمون في
عبوره ، وانما جاء اولئك المهاجرون من الشرق ، أي من آسيا ، مارين من

(١) راجع : العرب، وابن خلدون .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ١٧٢ .

(٣) يقصد الصحراء .

الارض الضيقة التي تصلها بأفريقيا^(١) او جاءوا من الغرب اي من مضيق جبل طارق .

والحق ان المهاجرين السود الشعور أتوا من شواطئ الفرات^(٢) ومن شمال بلاد العرب ، او من مكان ابعد منها على ما يحتمل ، وان المهاجرين الشقر الشعور الزرق العيون أتوا من شمال اوروبا ، ولا ريب في مجيء هؤلاء من شمال اوروبا مارين على الأرجح من اقصى طرف غربي بأفريقيا بدليل ما بين آثارهم الحجرية في افريقيا وما بين الآثار الحجرية التي اكتشفت في شمال اوروبا من المطابقة^(٣) .

ويقول المؤرخ التونسي الاستاذ عثمان الكماك ما نصه :

« ومعظم الباحثين يذهبون الى ان البربر من أصل سامي اي من ابناء سام ابن نوح . . فقد كانت الجزيرة العربية موطن الساميين مغطاة بالثلوج في شمالها فكانت اليمن بلاد اليمن والخير هي مهد ابناء سام الاولين مختلطين مع اولاد اعمامهم ابناء حام ، فلما انحسرت الثلوج اشتدت الحرارة وقحلت البلاد وتفرق سكانها فانتقل الفرع السامي الحامي من البربر والنوبة والحبشة وقدماء المصريين الى افريقيا واستوطنوها ، فانفرد البربر بشمال افريقيا والحبشة بأفريقيا الشرقية والسودان بأفريقيا الشرقية والوسطى وهذا ما ذهب اليه العرب وهو مشهور المذهب عند الاوروبيين اليوم سيما علماء الالمان^(٤) . »

ج - الفتح الاسلامي :

يذكر المؤرخون ان اول دخول العرب المسلمين لبلاد المغرب كان سنة ٢٦

(١) اي منطقة قنال السويس اليوم .

(٢) يتفق هذا مع ما ذكره ابن خلدون .

(٣) حضارة العرب ص ٣٠٢ .

(٤) البربر ص ٦٥

الفتح الاسلامي

يذكرهم ههنا ان اول دخول العرب المسلمين لبلاد المغرب كان سنة ٨٠٦

للهجرة على يد عبدالله بن ابي سرح في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، ولكن هذه الغزوة لم تكن سوى استطلاع وتعريف لأحوال البلاد وطرقها . اما الفتح الحقيقي فقد بدأ على يد عقبة بن نافع سنة خمسين الذي واصل زحفه الى آخر شبر من الارض المغربية حتى دخل بفرسه في مياه المحيط الاطلسي ، وقال كلمته المشهورة (١) وأسس عقبة مدينة القيروان التي اصبحت اول مركز للثقافة العربية والدين الاسلامي في بلاد المغرب .

وبالرغم مما تذكره كتب التاريخ من ان العرب قد وجدوا مقاومة عنيفة وصعوبات شديدة اثناء فتحهم للبلاد ونشرهم للاسلام (٢) فان البلاد المغربية قد تفتحت نفوس ابنائها وعقولهم في زمن مبكر للاسلام واللغة العربية . وهذا ما يفسر لنا كيف كان المغاربة متحمسين لنشر الاسلام خارج حدود بلادهم ، فكان جيش طارق القائد المغربي مكوناً من أغلبية مغربية ، وانتشر نفوذ العرب ودينهم في الاندلس بعد هذا الفتح المظفر سنة ٩٢ هـ ثم توالى انتصاراتهم العسكرية التي توقفت عن التوغل في اوروبا بعد واقعة بواتيه سنة ١١٤ هـ ٧٣٢ م .

وبعد ان كف التوغل العسكري في اوروبا اتجه الاهتمام الى الحياة الداخلية لفترة طويلة من الزمن في المغرب ، ولفترة قصيرة في الاندلس ، انتهت بمقدم صقر قريش : عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٧ هـ : الذي قام بسلسلة من الحروب المحلية والعامية انتهت بتوطيد ملك أموي ازدهرت في عهده الحضارة والثقافة العربية في الاندلس .

(١) هي قوله « اللهم اشهد اني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد اقاتل من يشرك بك حق لا يعبد احد من دونك » .

(٢) كانت اعظم مقاومة هي التي ابدتها الاميرة البربرية « الكاهنة » وقد خربت البلاد ظناً منها ان ذلك يثني العرب عن دخولها . ولكنها اوصت اولادها قبيل وفاتها بأن يسلموا ويحبوا الدين الجديد . شأن المغربي الذي يقاوم عن عقيدة وايمان ويخلص عن عقيدة وايمان ايضاً .

د - امتزاج العرب والبربر :

وجه الخلفاء المسلمون الاولون من بني امية عناية خاصة بهذه البلاد فارسلوا اليها البعثات العلمية والدينية ؛ لنشر الدين واللغة العربية بين سكانها . ومما زاد هذه العناية والاهتمام اتساعاً ودواماً ، ما ظهر في البلاد اول عهدها بالفتح من مقاومة عسكرية ، ثم ما قام به بعضهم من ادعاء للنبوّة او زعم بانّه المهدي المنتظر ، هذا فضلاً عن المذاهب الدينيّة الاسلاميّة المختلفة التي كثيراً ما تجد رواجاً وتبعث النجاح بين المغاربة . وان دل هذا على شيء ؛ فانما يدل على رغبة المغاربة في الاستقلال بشخصيتهم ، والتعبير عن هذه الشخصية بإمكاناتهم الخاصة . ولكن بعض المؤلفين المشاركة في القديم ومنهم ياقوت ، كانوا ينظرون الى هذه المحاولات نظرة لا تخلو من قساسة ؛ فقد قال ياقوت : « البربر اجفئ خلق الله ، واكثرهم طيشاً ، واسرعهم الى الفتنة ، واطوعهم لداعية الضلالة ، واصغاهم لنمق الجهالة ولم تخل اجيالهم من الفتنة وسفك الدماء قط . » ١١

وواضح ان ياقوت لم ينظر بعين الانصاف ، فالفتن والدعوات المذهبية التي يشير اليها ، لم تكن خاصة بالمغرب ، بل منتشرة في كل انحاء العالم الاسلامي بل وفي الدنيا قاطبة خلال العصور الوسطى ، كما ان هذه المذاهب الخارجة عن الاسلام ، او النابعة منه كانت كلها واردة من الشرق ، وقد وجدت من الرواج والاقبال في الشرق اكثر مما وجدت في المغرب .

وهناك عامل آخر لعب دوراً في هذا الميدان وهو ما كانت تفرضه الدول المتعاقبة على المغرب من معتقدات ومذاهب بحمد السيف احياناً ، والانسان لا يقبل بسهولة ما يفرض عليه فرضاً ، خاصة فيما يتصل بالرأي والعقيدة ؛ لذلك يلتهمز اي فرصة او مناسبة للتحرر مما فرض عليه واعتقاد غيره عن رغبة واختيار .

ومهما يكن من امر فاننا اذا تركنا جانباً هذه المذاهب والحكومات التي

لذهب ونجىء فانتنا نلاحظ ان العرب والبربر قد استطاعوا خلال العهد الاول للاسلام ان ينصهروا في بوتقته ، وان يكوّنوا مجتمعا واحداً متداخلاً الاجزاء ملتصم العناصر . وقد ساعد على ذلك كما اشير من قبل ، النشاط الديني والثقافي الكبير الذي بذله العرب لتهديب البربر وافهامهم مبادئ الاسلام وروحه الحقيقية الداعية الى الاخوة والمساواة والسلام . وليس هذا فقط فان وقوع بلاد المغرب في مركز وسط بين الاندلس والشرق قد اتاح للمسافرين والمتنقلين والتجار بين المشرق والاندلس ان يمدوا بهذه البلاد فينقلوا اليها البضائع والسلع ، والثروات المادية المختلفة ، كما ينقلون اليها الافكار والكتب والعلماء . ولهذا نجد ياقوت الحموي رغم حكمه القاسي المتقدم يعترف بما وصلت اليه بلاد المغرب في عهد الاسلام من رقي وازدهار وحضارة ، فيقول ما معناه : ان هذا ما نقل بلاد المغرب من امة جافية الى امة لها مدنيته وثقافتها .

هـ - عصر الولاة :

ظلت بلاد المغرب تابعة للخلافة الاسلامية بالمشرق منذ دخلها عقبة بن نافع الى ان زالت دولة بني أمية ، وتولى الخلافة الاسلامية بنو العباس . وكانت الامويون يضمون عاملاً على بلاد المغرب المستقر في القيروان . وقد تولى العمال الامويون على بلاد المغرب بعد عقبة بن نافع وكلهم موفدون من المشرق ومن العنصر العربي ، واشهرهم بعد عقبة حسان بن النعمان وموسى بن نصير وعبيد الله ابن الحبحاب . وقد تميز عهد هؤلاء باعمال جليلة في توطيد الاسلام بين السكان وفي دعم الاستقرار بالاصلاحات المختلفة .

فحسان هو اول من عرب الدواوين وجعل اللغة العربية لغة رسمية في بلاد المغرب ، وهو الذي جلب الاقباط من مصر لبناء السفن وانشاء الموانئ . وذلك لحماية السواحل من الغارات المفاجئة ولتيسير المواصلات والمعاملات البحرية .

وموسى بن نصير في عهده فتحت الاندلس التي يعد فتحها اول عمل عسكري
عظيم حققه المغاربة تحت راية الاسلام .

والى عبيدالله بن الجعاف ينسب تأسيس وبناء جامع الزيتونة الذي اصبحت
فيما بعد مركزاً عظيماً للثقافة واللغة العربية طيلة قرون عديدة وانجبت عباقرة
كثيرين امثال ابن خلدون وابن عرفة .



٢- الدول المستقلة

أ - الادارة :

لما انتقلت الخلافة الى بني العباس سنة ١٣٢ هـ وانتقل مركزها الى بغداد ، بدأت حركات انفصالية في بلاد المغرب ، وكان قادة هذه الحركات في الأغلب من العلويين المطالبين بالخلافة ، واول دولة اقامها الانفصاليون هي دولة الادارة التي اسسها بالمغرب الاقصى ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب سنة ١٦٩ هـ وبويع بالخلافة سنة ١٧٢ واستمرت دولة الادارة الى سنة ٣٧٥ ، حين ازالها الفاطميون .

ب - بنو الاغلب :

أسس ابراهيم بن الأغلب التميمي سنة ١٨٤ دولة بافريقيا وجعل القيروان عاصمة لها ، وقد عظمت دولتهم وأنشأوا اسطولا قويا في البحر الأبيض فتحوا به صقلية ومالطة وسردينيا ، وكان عهدهم عهد سيطرة قوية على البحر ، وقد استعادت البلاد في عهدهم كثيراً من رخائها وازدهار حياتها الاقتصادية والزراعية التي كانت لها قبل تخريب الكاهنة . وقد استمرت دولتهم الى ان ازالها الفاطميون سنة ٢٩٦ .

ج - الفاطميون :

ظهر الفاطميون في اول الامر بالمغرب الاقصى سنة ٢٩٦ بزعامة ابي عبدالله محمد عبيد الله المهدي وما لبثت ان بسطت سيطرتها على كامل بلاد المغرب العربي ، واتخذت من مدينة المهدية عاصمة لها وقد اسسها سنة ٣٠٠ المهدي ودام بناؤها خمس سنوات . وكان فيها ميناء بحري عظيم يفتق بالسلاسل بعد ان تستقر به السفن .

وفي عهد الفاطميين انتشر مذهب الشيعة عن طريق الدعاية والتبشير واحيانا عن طريق السيف والقوة . وقد ازدهرت الحياة الادبية والعلمية والاقتصادية في عهدهم . واتسعت جوانب النهضة والحضارة التي اسسها الاغلبية من قبلهم .

ولما قوي نفوذ الفاطميين زحفوا على الشرق سنة ٣٥٨ هـ فاستولوا على مصر والشام واليمن والحجاز . واخذوا البيعة بالخلافة من كل هذه الاقطار ، وباستيلائهم على الشام هددوا الخلافة العباسية في العراق .

د - الصنهاجيون :

ولم يمض وقت طويل على استقرار الفاطميين في مصر وتأسيسهم مدينة القاهرة والجامع الأزهر ، وجعلها عاصمة لهم حتى بدأ نفوذهم في المغرب يضعف ويتلاشى ، ووجد عمالهم الصنهاجيون الفرصة سانحة ، فأعلنوا الانفصال عن الفاطميين سنة ٤٣٥ هـ ، وتمكن يوسف بن بلكين من بسط سلطانه على كامل تونس والجزائر . وقد اشتهر من ملوك هذه الدولة الصنهاجية (وهي بربرية) باديس بن يوسف ، وابنه المعز ، الذي حمل الناس بافريقية على مذهب مالك ، وكان اكثرهم من قبل على مذهب ابي حنيفة او شيعة ، وجاء بعد المعز ابنه تميم

الذي كان شاعراً كبيراً كما كان أبوه شاعراً أيضاً. وفي عهد تيم ظهرت الانقسامات الخطيرة في البلاد واصبحت كالاندلس تحت رحمة ملوك الطوائف . وكان هذا الانقسام بعد زحف الهلاليين المشهور في التاريخ وبفعل هذين العاملين دخلت البلاد في عهد تدهور وانحلال طويلين .



٣ - عصر الازدهار

تقديم

في عهد المعز الصنهاجي بلغت الحضارة والثقافة في المغرب مبلغاً عظيماً ، ونبغ عدد كبير من العلماء والأدباء . وكان البلاط الصنهاجي زاخراً بكثير من نبغاتهم . كما كان من قبل البلاط الفاطمي في المهديّة يعج بالشعراء المدّاحين ، وفي طليعتهم ابن هانيء الذي كان أقوام شاعرية وأكثرهم مدحاً للمعز الفاطمي ، وتسجيلاً لمفاخر الفاطميين وأعمالهم اللشائية والعسكرية ، وليس له من شبيه في هذه الناحية سوى المتنبي مع سيف الدولة . ومن شعره في المعز الفاطمي بعد انتصاره في مصر قوله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم ، فأنت الواحد القهار !

وقد استمر ازدهار الحضارة وتقدم العلوم والآداب في المغرب الى منتصف القرن الخامس الهجري حين توقف كل شيء فجأة ، بل انهار دفعة واحدة وأوشك ان يضيع كل شيء ؛ وذلك بتأثير زحف الهلاليين وما قاموا به من تدمير وتخريب ، نال القيروان - مركز الاشعاع الحضاري - نصيباً كبيراً أليماً ، فتلاشى كثير من العمران ، وقتل عدد من العلماء والأدباء ومن نجا منهم فر الى صقلية او الاندلس كابن رشيق وابن شرف والحصري والضرير .

ويلتهي العصر الذي نريد دراسة شخصيات منه الى هذا التاريخ ، وان كان تاريخ بعض الشخصيات يمتد فترة اخرى من الزمن حيث عاشوا في أماكن اخرى خارج المغرب ، كابن رشيق الذي هاجر الى صقلية ، وابن شرف الذي انتقل الى الاندلس ؛ ذلك ان هاتين الشخصيتين - وخاصة ابن رشيق - هما من اروع الشخصيات التي تمثل عصر الازدهار الادبي في المغرب العربي .

ومن الواضح ان عصر الازدهار الذي نغنيه يشمل مائة عام تقريباً اي من منتصف القرن الرابع الى منتصف القرن الخامس . وقد استعرضنا في ايجاز احوال المغرب السياسية منذ الفتح الى خراب القيروان ، وتحلل ذلك الاستعراض لمج مختلفة عن جوانب اخرى من الحياة الادبية والاقتصادية . ومع ذلك ينبغي ان نقف وقفات طويلة ، لنستطلع ما وصلت اليه الثقافة والآداب في المغرب ، في عصر الازدهار الصنهاجي مع استعراض عام للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية التي كان لها تأثير على الحياة الثقافية في هذا العصر .

أ - الحياة السياسية :

تقدم لنا ما يفيد قيام الدولة الصنهاجية والظروف التي ساعدت على استقرارها ورأينا كيف ان مؤسسها لم يكن سوى عامل على البلاد من طرف الفاطميين في مصر ، فلما شعر المعز بضعفهم وبرسوخ نفوذه اعلن الانفصال عنهم بطريقة فيها كثير من التعدي اذ هو لم يكتف بالانفصال بل اعلن الولاء للخلافة العباسية وقطع الخطبة عن الفاطميين في المساجد وجعلها للعباسيين ولم يكتف بذلك بل حارب مذهب الشيعة بين السكان ولاحق اتباعه وعزز مذهب السنة اي مذهب الامام مالك .

وعلى اية حال فان العصر الصنهاجي رغم الثورات والاضطرابات التي تكاد لا تنقطع قد أتاح للبلاد فترة طويلة من الاستقرار الذي كان عاملاً أساسياً من

عوامل ازدهار الحياة الثقافية والادبية بوجه خاص ، ويجب ان نتذكر ان هذا الاستقرار قد سبقه استقرار نسبي آخر في عهد الفاطميين قبل انتقالهم الى مصر سنة ٣٦١ وقد اتصلت فترة الاستقرار ببعضها دون حدوث انقطاع من شأنه ان يعكس سير الحضارة . ولا ننسَ هنا الجهد والاهتمام الكبيرين اللذين بذلتهما عدد من أمراء هذه الدولة نحو العلم والعمران خاصة الأمير باديس وابنه المعز وابنه تميم الذين عنوا عنـاية فائقة بنشر التعليم وتشجيع العلماء والأدباء فبدلوا جهدهم في جعل الامن يستتب والحياة الاقتصادية تزدهر والعمران يتقدم . ويكفي ان نستشهد هنا بما قاله ابن خلكان عن المعز بن باديس من انه : « كان محباً لأهل العلم ، كثير العطاء ، مدحه الشعراء وانتجعه الأدباء . وكانت حضرته محط بني الآمال » وقال عن ابنه الأمير تميم : « كان محباً للعلماء معظماً لأرباب الفضائل حتى قصده الشعراء من الآفاق على بعد الدار كابن السراج الصوري وانظاره » وكان يميز الجوائز السنية ويعطي العطاء الجزيل .

ولا شك ان هذه الحفاوة والتقدير والكرم في الجوائز والعطاء هي الاجواء التي تساعد على ازدهار الادب في تلك العصور ، فلا غرابة ان « تسابق الناس الى المعارف والآداب ، وبرزوا نتائج افكارهم ودرؤوا بحاثهم ، استجداءً لمعالي الامراء والاغنياء او اظهاراً لمواهبهم واقتدارهم ، او لمجرد النفع العام وتخليداً لذكورهم » (١) .

وهكذا نرى ان استقرار الحياة السياسية في هذا العصر الذي يعد العصر الذهبي للحياة الثقافية في المغرب العربي ، والذي يمكن تقديره بمائة سنة على الأقل ، اي من منتصف القرن الرابع الى منتصف القرن الخامس قد مكن الحياة الادبية من التقدم والرقى ومن التنوع والابتكار . وهو العصر الذي ظهر فيه اعلام الثقافة والادب الكبار امثال النهشلي والقزاز والحصري وابن شرف

(١) المنتخب المدرسي ص ٥٠

وابن رشيقي .

الهلاكيون : الا ان فترة الاستقرار هذه لم تدم اكثر من ذلك مع الاسف ،
فما كاد المعز يعلن انفصاله عن الفاطميين سنة ٤٣٥ هـ وارتباطه بالعباسيين —
اعداء الفاطميين الألداء — حتى احس السنيون في القيروان ان مركزهم قد تعزز
فاخذوا يضطهدون الشيعة انتقاماً ورد فعل لما كان الشيعة قد قاموا به لمحوهم في
عهد الفاطميين ، وبذلك اطلق العنان للفتن المذهبية فسفكت الدماء بغير
حساب .

وبلغ الامر الى الفاطميين في مصر ، وكانت الانقلابات والفتن الداخلية فيها
قد انهكت قواهم العسكرية ، فلم يستطيعوا ارسال قوة يؤدبون بها المعز
ويرجعون البلاد الى نفوذهم ، فعمدوا الى مكيدة تخريبية مشهورة في التاريخ ،
وهي ارسال قبائل من الاعراب كانت تقيم في الصعيد المصري الى افريقية لتلتقم
لهم من المعز ومن اهل البلاد الذين نكلوا بالشيعة . وقد اغروا زعماءهم بما
قدموه لهم من مال ، وبما اباحوه لهم من نهب . وهكذا قدمت هذه القبائل
التي كان عدد افرادها يناهز نصف مليون رجل ، وبدأوا بحملة رعب مهولة في
برقة تردد صداها في النحاء افريقية وخاصة بالقيروان ، وحدثت بلبلة حتى في
صفوف جيش المعز ، فلم يستطع ان يثبت امامهم اكثر من اربع سنوات ،
دخلوا بعدها الى القيروان ففتكوا بأهلها وخربوا عمرانها ، فلجأ المعز الى المهديّة
واتخذها عاصمة له . وحدثت هذه الفاجعة صدى عميقاً في الادب بالمغرب لا
يقل عن الصدى الذي أحدثه تخريب الزنج لمدينة البصرة في ثورتهم سنة
(٢٤٣ هـ — ٨٧٠ م) .

ب - اجتماعياً :

كانت القيروان في العصر الذي نؤرخ له تعدت من ازهى عواصم العالم العربي

الى جانب دمشق والكوفة وبغداد وقرطبة . وكانت الحياة الاجتماعية فيها على غاية من النشاط واتساع العمران . وكان سكانها قد انتشرت بينهم حياة الدعة والرخاء والبذخ ، ويذكر الاستاذ ح عيد الوهاب ^(١) ان الابلية فيها كانت تتخللها البساتين وان ما يقرب من ثلاثين ضاحية كانت تمتد حولها . وقد اشتهرت منها ضواحي : جلولا ، والمنصورية ، والحصر ، وبني تميم ، ورقادة . وكانت انواع الملاهي واسباب الارتزاق التجاري كثيرة متعددة كتعدد معاهد العلم واماكن العبادة ولهذا كثر رواد المدينة والوافدون اليها من انحاء المشرق والمغرب والاندلس على السواء وكانوا يفدون للتجارة او للهو او طلباً للعلم .

على ان القيروان لم تكن منفردة بهذا الازدهار الشامل بل كانت تشاركها فيه ايضاً كل من فاس والمسيلة وقابس وصفاقس وقفصة وتوزر وباجة والمهدية وتونس .

ولم يتميز عصر الصنهاجيين ببعث النشاط والعمران في المدن الموجودة من قبل فحسب بل اسسوا مدناً اخرى كانت هي ايضاً مراكز لمثل هذا الازدهار، منها مدينة الجزائر ومليانة والمدينة وغيرها .

وكانت حياة المدن زاخرة بنشاط الطبقات الشعبية ، سواء في الكد والعمل او في الراحة واللهو . وكان اكثر ولوعهم في اوقات الراحة بسباق الخيل او الحراب او الجلوس حول موائد الشطرنج ، وكذلك حول القصاصين في مجالسهم الشعبية ، كما كان الشبان يترددون بكثرة على محال الغناء والرقص وخاصة في ضاحية القرية ، فقد حكى ابن رشيقي : « ان الشاعر بكر بن علي الصابوني دخل الى محل قبان فوجد جماعة من اخوانه يشربون ، منهم ابن ابي حفص الكاتب ورأى برذونه ^(٢) قائماً في السيفة فقال كم لكم ها هنا ؟ فقالوا كذا وكذا يوماً ،

(١) بساط العقيق ص ١٤ .

(٢) نوع من الخمر الكبيرة .

فشرب نهاره اجمع وليله وأراد الانصراف من الغد فاقتعد رداءه ودراهمه ولم
يعثر لهما على اثر ، فقال لأبي حفص الكاتب : سألتك بالله ان تنزل الى هذا العبد
الصالح فتستوهب لنا منه دعوة بأن يفضح الله سارقنا فانه — اي العبد الصالح —
صائم النهار قائم الليل . قال : واي عبد يكون هذا ؟ قال : هو برذوفك
يا سيدي ؟ فضحك الجماعة وانصرفوا .

وقد اوردنا هذه القصة لانها تصور جانباً من حياة اللهو التي كان يعيشها
الناس لا بالساعات بل بالايام والليالي ، ثم لانها تصور لنا جمال النكتة الراقية
وجو المرح النفسي .

وكان الموسرون من الناس في هذه المناسبات يبالغون في التأنيق في اللباس ،
حق قيل ان احد قضاة القيروان ترك كسوة بعد وفاته قومت بألف دينار .

أما المرأة فكانت تعتمد في اناقة لباسها على الحلي بالخصوص ، وعلى اصوات
الخلخال وهي تمشي في الشوارع فيحدث مشيها رنة ملفتة للانظار .

أما انواع الأكل والحلويات فقد تفنن فيها الناس في هذا العصر ، وما تزال
مدينة القيروان الى اليوم تحتفظ بجانب من مظاهر هذه الحضارة^(١) .

ج - اقتصادياً :

تعد بلاد المغرب العربي من اجود المناطق الصالحة للفلاحة ومن اكثرها تنوعاً
من حيث طبيعة الارض ، فهي تحتوي على الجبال والسهول ، كما تحتوي على
الصحراء والشواطىء . وقد قيل ان العرب عندما فتحوا هذه البلاد وجدوا
ظلال الاشجار لا تنقطع فيها من طرابلس الغرب الى قسطنطينة .

(١) راجع بساط المتيق .

والحق ان بلاد المغرب ليست غنية يجبالها المكسوة بالغابات فحسب بل كانت سهولها مغطاة بالبساتين الممتدة حول الانهار والعيون والآبار ، وكذلك بحقول الحبوب والمزارع ، كما كانت صحراؤها ولا تزال مطرزة بواحات النخيل .

واكثر منتوجات هذه البلاد هي الحيوانات والزيت وشق انواع الجفهر والحبوب والبقول .

وكانت كل هذه المواد تلتقل بين مختلف مناطق المغرب العربي ، وتصدر كميات منها الى الخارج خاصة الى الشرق والى الاندلس .

أما الصناعة فقد كانت على جانب كبير من التقدم والاتقان ، وتعتمد عنصراً هاماً من ثروة الشعب العامة ، ورفاهيته .

واذا صرفنا النظر عن الصناعات الحربية الصغيرة منها والكبيرة كبناء السفن والحراقات وانواع الاسلحة ، فاننا نجد في طليعة الصناعات المدنية : الحرير والزرابي والمنسوجات القطنية والصوفية والحريرية بأنواعها الكثيرة .

وقد بلغت صناعة المنسوجات درجة عالية من الاتقان والتفنن ومثل ذلك يقال عن المصنوعات الجلدية التي كانت تطرز بأسلاك الفضة . وكذلك كان الاتقان والتفنن طابع كثير من الصناعات الممتازة مثل المجوهرات ، والزجاج والورق الذي كانت أوروبا تستورده من تونس ، وكانت صناعته من انشط الصناعات واكثرها انتشاراً ونجاحاً بين سكان القيروان خاصة .

وكان كل هذا النشاط الصناعي والتجاري يساهم في تشغيل اليد العاملة ، وتلشيط حركة الصادرات بالموانئ .

كذلك مكن هذا النشاط الاقتصادي الدولة الصنهاجية بالخصوص من ان تكون من اوفر الدول مالا ، حتى قال ابن خلدون عنها : كان الصنهاجيون

بافريقيا اذا أجازوا الوقود من امراء زناتة فانما يعطونهم المال احمالاً والكسا
تخوتاً مملوءة والحملان جنائب عديدة .

د - دينياً :

يعتبر أبناء المغرب العربي سواء قبل الاسلام او بعده من أقوى الشعوب
حرارة في عاطفة الدين .

وقد كان الدين المنتشر فيهم هو الوثنية في الدرجة الاولى ، والمسيحية
واليهودية في الدرجة الثانية ، وكانت الوثنية أكثر انتشاراً في البوادي والجمال
بينما المسيحية واليهودية كانتا سائدتين أكثر في المدن .

فلما جاء الاسلام قاومه البربر اول الامر بشدة لم يعرف العرب لها مثيلاً في
بقية الاقطار التي فتحوها ، ولكن عندما استتب الدين الجديد وفهمه المغاربة
على حقيقته تغيرت نظرتهم اليه وشعروا بأن الاسلام ليس شبيهاً بالغزو الروماني
فكان اعتناقهم وتحمسهم له لا يقل حرارة وصدقاً و إخلاصاً عن مقاومتهم
الاولى له .

وقد أشرنا من قبل الى الجهود التي بذلها الامويون في نشر القرآن والعربيا
والتعاليم الدينية بين المغاربة .

فلما تولى الاغالبية الامر في البلاد (١٨٤ - ٢٩٦) ساروا خطوات اوسع
واعمق في تركيز كل من التعاليم الدينية واللغة العربية كما وجهوا في الحقل
الاجتماعي عناية خاصة لتحضير البدو حتى يلتشروهم مما يتعرضون له باستمرار
من اسباب الفتن والفوضى ، وكانت لهم في هذا الميدان سياسة رشيدة حقاً
وبعيدة النظر .

وكان المذهب الاسلامي السائد في عصر الاغالبية هو مذهب الامام مالك ،
لما يتصف به من بساطة وتشدد في آن واحد تتفقان مع بساطة الجماهير
وعاطفة التصلب الديني عند المغاربة .

اما في عهد الفاطميين فقد اقتضت الملازمات السياسية التي صاحبت نشوء
دولتهم ان يتساعخوا مع اهل السنة في بداية الامر ، حتى اذا قبضوا على زمام
الامور بيد قوية أخذوا يفرضون على الناس اعتناق المذهب الشيعي ،
واستعملوا لذلك القوة حيناً والدعاية الشعبية احياناً ، ومن ذلك اختراع
اعباد ليست من صميم الدين بل هي مذهبية بمحنة كعيد عاشوراء ، وكبت
المداحين او القوالين فيقيمون المجالس والحلقات يفيضون فيها الحديث والقصص
باسلوب شيق حول مكانة ابناء فاطمة بنت الرسول ، وخاصة حول بطولة
ابيهم الامام علي بن ابي طالب وما ابداه في سبيل الاسلام من جهاد وما تحمل
به من صفات تكاد تكون مقدسة عند الشيعة ، وهي في نظرهم الصفات التي
يلبغى ان يتصف بها الامام .

وما تزال آثار هذه القصص منتشرة الى العصر الحاضر في مختلف انحاء
المغرب العربي .

وفي عصر الصنهاجيين استمرت الحياة الدبيلية كما تركها الفاطميون عندما
انتقلوا الى مصر سنة ٣٦١ هـ وحافظ الصنهاجيون على ولائهم السيامي والمذهبي
نحو الفاطميين الى ان جاء المعز (٤٠٦ - ٤٥٣) واعلن انفصاله عن الفاطميين
سياً (٤٣٥) ، ثم مذهبياً (٤٣٩) ، بعد انضمامه الى العباسيين ، واخذ
منذ هذا الحين يقاوم مذهب الشيعة ويعزز مذهب الامام مالك ، مستعيناً في
ذلك باحياء ذكريات الاضطهاد الشيعي في نفوس الجماهير .

ومنذ عهد المعز الصنهاجي ، امتتب المذهب المالكي نهائياً في اقطار

المغرب وقد زاده استحكاماً بعد ذلك الاندلسيون المهاجرون بعد ضياع
الاندلس .

ومن المناسب ان نذكر هنا رأياً اوردده المستشرق الروسي « ف. بارتولد »
يتصل باستقرار مذهب مالك وحده في بلاد المغرب ، وهو :

« ... وقد انتصر المذهب المالكي في افريقيا الشمالية ، ولم يقدر على
الاستقرار في البلاد الاخرى كثيراً ، ويجعل بعض العلماء هذا الامر سبباً
لتأخر هذا الركن من البلاد الاسلامية حضارة » (١) .

ويمكن الرد على هذا الرأي بأن بلاد المغرب قد بلغت أوج حضارتها في
عصر الاغلبية الذين كانوا قد ايدوا مذهب مالك ونشروه في البلاد ، ومثل
هذا يقال عن صقلية والاندلس اللتين كانت السيادة فيها لمذهب مالك وحده ،
ولم يحل ذلك دون بلوغها مستوى من الحضارة لا يقل في شيء عن مستوى
حضارة العرب في الشرق .

(١) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٥٥

٤ - الحياة الثقافية

أ - مراكزها ،

كانت القيروان اولى المدن التي تأسست في الاسلام ، وقد ظلت طيلة قرون عديدة مركز الاشعاع الثقافي الديني ، كما كانت عاصمة سياسية طيلة نفس المدة تقريباً ووصف ابن خلدون مدينة القيروان وكيفية تأسيسها فقال: « اختط عقبة القيروان وبنى بها المسجد الجامع وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم ، وكان دورها ثلاثة آلاف وستمائة باع . وتمت في خمس سنين » .

ووصفها المقدسي في القرن الرابع ، فقال : « كانت مصرأ بهياً عظيماً قد جمع اعداد الفواكه ، والسهل والجبل ، مع علم كثير ، لا ترى ارفق من اهلها ، ليس بينهم غير حنفي ومالكي مع ألفة عجيبة ، لا شغب بينهم ولا عصبية ؛ فهي مفخرة المغرب ومركز السلطان واحد الاركان . ارقى من نيسبور ، واكبر من دمشق ، واجل من اصبهان ... بها جامع^(١) بموضع يسمى السباط الكبير ... وهو اكبر من جامع ابن طولون^(٢) ، بأعمدة من

(١) هو جامع عقبة بن نافع .

(٢) احد الملوك الانفصاليين بمصر عن الدولة العباسية سنة ٢٥٤ .

الرخام ومفروش بالرخام » .

ان هذا الوصف القصير ذو قيمة كبيرة ، فهو على تعميمه يعطي صورة رائعة عما وصلت اليه القيروان في القرن الرابع - الذي نؤرخ حياته الأدبية - من حضارة وعمران وتقدم واسع في جميع نواحي الحياة . وفي هذه المدينة نشأ وذاع صيت الذين سنترجم لهم باستثناء ابن هانئ الذي نشأ في الاندلس وان كان اصله من المهدية .

والى جانب القيروان كانت هناك مراكز ثانوية اخرى للثقافة والآداب ، وقد وصل بعضها الى الدرجة الاولى في فترات معينة من التاريخ مثل المهدية ، وتاهرت - عمالة وهران - وتلمسان ، وفاس .

وكانت القيروان ترسل الى مختلف هذه المدن بعلمائها ، كلما تتلقى طلاباً يدرسون فيها من جميع أنحاء المغرب العربي ، وقد كان دور القيروان الثقافي هذا قديماً منذ عهد الاغالبة عندما اسست السيدة فاطمة ام البنين سنة ٨٢٥٥ م جامع القرويين بمدينة فاس ليكون مسجداً للعبادة ومعهداً للعلم ، شأنه شأن جميع المساجد الكبرى في العالم الاسلامي .

ب - انواعها :

اشرنا فيما تقدم الى الجهود التي بذلها العرب في نشر الاسلام وتعليم العربية الى البربر منذ زمن مبكر ومن هنا كانت العناية الاولى والاهتمام الاكبر متجهين خلال عصور التاريخ الماضية الى العلوم الدينية . ولهذا امتاز النشاط الثقافي في بلاد المغرب عامة بكثرة الفقهاء والمحدثين ، كما امتازت ثقافة المغرب الاسلامية بنقص واضح في الفلسفة والعلوم العملية ، وان كانت في الواقع لم تحرم من عباقره رفعوا شأنها الى القمة في هذه الميادين بالذات ،

وترك كل واحد منهم طابعاً بارزاً جداً في ميدان ما من ميادين الثقافة العربية في المغرب ، بل في العالم العربي كله ؛ فابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ = ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) ارتقى بالتاريخ من السرد والقصص الساذج الى درجة العلم والفلسف ، وتعتبر مقدمته المشهورة فتحاً جديداً في هذا الميدان لم يسبق اليه ولم ينسج على منواله احد من بعده في العربية مع الاسف^(١) .

ومنهم جمال الدين ابن منظور القفصي (٦٣٠ - ٧١١ هـ ١٢٣٢ - ١٣١١ م) صاحب معجم لسان العرب الذي يعتبر اكبر موسوعة في مادة اللغة العربية . وابن رشيق (٣٨٥ - ٤٥٦ هـ) صاحب العمدة التي تعتبر اول محاولة في العربية وضعت اسر . النقد الادبي الصحيح^(٢) .

وابن طفيل (٥٩٢ هـ - ١١٨٥ م) صاحب قصة « حي بن يقطان » التي تعد اول قصة فلسفية كتبت بالعربية .

ومن هؤلاء الاعلام العباقرة نذكر الحصري صاحب زهر الآداب الذي يعد من اضخم المصادر لتاريخ الادب العربي^(٣) .

وابن ظفر الصقلي الذي هو اول من ألف في ادب الاطفال^(٤) .

وابن الجزار الذي تجاوزت شهرته في الطب حدود العالم الاسلامي الى اوروبا ، والذي كان الى جانب علمه الواسع في الطب والتاريخ يعطي كثيراً من وقته لمعالجة المرضى . وعلي بن ابي الرجال الفلكي الشهير ، ومثله احمد بن يوسف التفاشي القفصي الذي كانت كتبه معتمدة عند علماء الفلك باوروبا الى زمن متأخر .

(١) راجع دراسات عن مقدمة ابن خلدون للاستاذ ساطع الحصري .

(٢) راجع ترجمتها في الشخصيات .

(٤) راجع مقالاً للاستاذ عثمان الكماك نشره بمجلة المباحث التونسية ع ٢٩ - ٣٠ .

ولكن هؤلاء رغم اهمية انتاجهم المبتكر كانوا قلة بالنسبة الى الكثرة
الغالبة من الفقهاء والمحدثين .

ومن اعلام الفقه الذين نبغوا وتركوا صدى قويا في التفكير الديني
الاسلامي : اسد بن الفرات ، الذي قولى قضاء افريقية في عهد الاغالبة ،
وقاد جيشهم لفتح صقلية حيث تمكن من الظفر بانتصارات ساحقة واستشهد
قبل النصر الاخير . والامام سحنون وابنه محمد . وابو محمد عبدالله بن ابي
زيد القيرواني الملقب بـ « مالك الصغير » لشهرته وكثرة علمه بفقه مالك .
وعلي بن محمد القابسي صاحب الآراء القيمة في التربية ^(١) .

كان العلماء في هذا العصر يتحلون بكثير من الصفات الحقيقية للعلماء ،
كمحورية البحث والتسامح ، وبذل الجهد والمال وتحمل المشاق الكثيرة ، بما في
ذلك السفر الطويل في سبيل العلم . ولو ترك الامر للعلم وحده او للعلماء
وحدهم لكان الشأن غير الذي نعرفه في التاريخ ، ولكن السياسة وتعصب
ذوي السلطان الى مذاهب او آراء معينة ، كل هذا كان يحرق في بعض الفترات
محنًا ونكبات على العلماء ، وبالتالي على العلم نفسه ؛ وقد لقي عدد من العلماء
الاضطهاد والموت احيانا بسبب شهوة الحكم هذه في فرض آرائهم ومذاهبهم
على الشعب ، وقد قيل ان الفاطميين قتلوا من اجلته علماء القيروان خمسة
وثمانين عالما في سنة ٣٣٦ هـ وحدها !!

ج - امتدادها :

تعتبر صقلية امتدادا ثقافيا لبلاد المغرب ، كما كانت امتدادا سياسيا لها ،
وهي مع بلاد المغرب والاندلس تكون جميعها وحدة ثقافية تميزت في التراث

(١) انظر كتاب « التربية في رأي القابسي » للدكتور احمد فؤاد الاهواني .

الثقافي العربي الاسلامي العام بطابع خاص . ورغم ان الاندلس بلغت شوطاً ابعد واوسع ما بلغته صقلية والمغرب في الثقافة والحضارة حتى عدت بمثابة العراق في الشرق واعتبرت قرطبة كبغداد ، اي انها منطقة ارتكاز واشعاع في بلاد المغرب كما هو الحال بالنسبة للعراق في بلاد المشرق ، رغم ذلك بأن الصلات والتفاعل كانا كاملين بين هذه الاقاليم الثلاثة لامتزاج عناصر سكانها وكثرة الاتصال والانتقال والعلاقات المتشابكة المختلفة .

ولهذا تعد بلاد الاندلس وصقلية من حيث تراثها الثقافي بلاداً مغربية ؛ خاصة وان كثرة هائلة من سكانها النازحين اليها بعد الاسلام قد كانوا من اهل المغرب . ولا شك ان مساهمة هؤلاء كانت فعالة في جملة التراث العربي الاسلامي ؛ كما كانت فعالة في الفتح العسكري ونشر الاسلام .

وهنا ينبغي ان نشير قبل استعراض الثقافة الادبية المغربية ، الى اهمية الدور الذي قامت به كل من صقلية والاندلس والذي فاق في الاخيرة منه على الاخص حتى الدور الذي قام به المغرب ^(١) . وفي بعض الفنون او ميادين الفكر نلاحظ سبقاً وابتكاراً لم يصل اليهما الفكر او الادب العربي في المشرق ، كفلسفة ابن رشد وفن الموشحات الذي ابتكر في الاندلس . وكذلك فسان صقلية قد لعبت دوراً بارزاً ، ليس فقط في الثقافة العربية وعلاقتها ببلاد المغرب وانما ايضاً وعلى الاخص في النهضة الأوروبية الحديثة ، والذي يعيننا هنا هو الدور الاول حيث انجبت صقلية كثيراً من العلماء والمثقفين واصبحت في عصر ازدهارها المتفق في الزمان تقريباً مع الازدهار في المغرب ، اصبحت في عصرها هذا يضرب المثل بثقفيها جودة وعلماً ، فيقال « فلان تلقى علمه في صقلية » وما يزال حياً الى اليوم في كلامنا العامي مما يؤكد هذه الحقيقة ،

(١) نستعمل كلمة المغرب في هذا الكتاب بمعناها القديم الذي يشمل ما يعرف اليوم باسم: ليبيا ، تونس ، الجزائر ، المغرب الاقصى .

حيث يقولون « الطبيب الصقلي » تعظيماً للطبيب الماهر ، وتقديراً لعلو
مقدرته ، ولا شك ان هذا منحدر من عصر الازدهار الذي وصلت اليه صقلية .

ولعل من الاسباب التي جعلت بلاد المغرب العربي تزدهر ثقافتها الدينية
وتنكش ثقافتها العلمية والفلسفية بعض الشيء هو استمرار الثورات والفتن مما
جعل المجتمع لا يتمتع بفترة كافية من الاستقرار الذي لا بد منه للنهوض
والتقدم الحضاري والفكري. وكان من هذه الاسباب ايضاً انصراف المسؤولين
ورجال الدول في المغرب الى تنمية القوة العسكرية للمحافظة على مراكزهم
اكثر من انصرافهم الى الاعتناء بالثقافة والفكر ؛ ونلاحظ هذا الاتجاه
العسكري منذ القرن الاول للهجرة حيث استقر في نهايته العرب بعض
الاستقرار فوجهوا اهتمامهم في الحال الى انشاء قوة بحرية لحماية السواحل وغزو
الشواطئ الأوروبية . وهكذا جلب حسان بن النعمان الف عائلة من الأقباط
المصريين المختصين بصناعة السفن والفنون البحرية وأنزلهم في الثغور التونسية
خاصة في قرطاجنة فبنوا لها اسطولا ظل يتعاضد شأنه حتى استطاع بنو
الأغلب ان يحتلوا به قسماً كبيراً من ايطاليا الجنوبية وجزر البحر الأبيض
المتوسط . وقد بقيت الأساطيل البحرية لدول المغرب قوة هائلة طيلة العصور
الاسلامية . ولعبت البحرية المغربية دوراً هائلاً في تاريخ الملاحة العربية
حربية وتجارية ، في حوض البحر الأبيض المتوسط « الذي كان بحراً لاتينياً
فأصبح بحراً عربياً حقيقياً » ، وأصبحت العربية في كل شواطئه لغة دولية
للتجارة والعلم « (١) » وعندما ضعفت وحدة المغرب السياسية واقتسم حكمه
ملوك الطوائف ضعفت البحرية المغربية كقوة دولية ولكنها بقيت خطيرة
الشأن في ميدان المغامرات والغارات الفردية او ما يسمى « بالقرصنة » ، وقد
استطاع بعض المغامرين المغاربة ان يهددوا روما بالسقوط والفتح مرتين (٢)

(١) المعجزة العربية ص ٦٦ - ٦٧ .

(٢) راجع « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » .

وظلت قوة المغاربة البحرية مرهوبة الى مطلع القرن الثامن عشر حيث كان لليبيا وللجزائر في هذا العصر قوة بحرية هددت المواصلات التجارية واضطرت بعض الدول الأوروبية وحقى الولايات المتحدة الاميركية الى دفع ضريبة سنوية مقابل سلامة قوافلها التجارية (١)

د - النهضة الادبية :

كانت النهضة الادبية ضعيفة ضئيلة في اول الامر لحدائث العربية في هذه البلاد ثم انتشرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً بواسطة المعلمين المبعوثين من طرف الخلافة الأموية في الشرق لتعليم العربية والدين والقرآن للبربر ، ونذكر هنا ان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد ارسل بعثة مكونة من عشرة فقهاء حلوا بالقيروان في مطلع القرن الثاني للهجرة ، وقد ذكرنا سابقاً ما قام به هؤلاء وغيرهم من دور عظيم للنشر العربية والدين الاسلامي في هذه البلاد. ولا ننس هنا ما قلناه سابقاً من جعل العربية لغة الدولة الرسمية في عهد حسان بامر من الخليفة عبد الملك بن مروان الذي امر باحلال العربية محل جميع اللغات الاخرى في اقاليم الدولة الاموية ، ولا شك ان لهذا كله اثره الفعال في انتشار العربية بين السكان. واهتمامهم بالأدب والثقافة العربية بوجه عام. ومن الواضح ان مسائل الدين وعلومه كانت اسبق في الانتشار والازدهار ولكن انتشر معها ايضاً القرآن والحديث فأدى انتشارهما شيئاً فشيئاً الى انتشار اللغة العربية والأدب العربي وازدادا مع الأيام تمكناً وارتقاء . وبدأ البربر يحدون في دراسة اللغة والأدب العربيين مرتعاً خصيباً للتعبير عن خلجات نفوسهم وللتأليف في الفقه والحديث اول الأمر . وتطور كل ذلك مع توالي السنين وظهور أجيال جديدة نشأت نشأة عربية محضة وتلقت تعليمها عربياً كاملاً

(١) راجع « دراسات في التاريخ العربي » ص ١٣٩ - ١٤٦ .

فتفتقت القرائح والأذهان وبدأ يظهر الشعراء والخطباء والكتّاب . ويعد
عهد الأغالبة أول عصر لازدهار الأدب العربي في المغرب فقد ظهر فيه عدد
من الأدباء يمكن اعتبارهم على قلتهم ممثلين لمظاهر نهضة أدبية ما زالت في
بدايتها . وكان عدد من الأمراء الأغالبة أنفسهم شعراء كإبراهيم بن الأغلب
مؤسس الدولة الأغلبية وحفيده الأمير أبو العباس بن الأغلب . ومن شعر
الأول قوله يفخر بنفسه :

ما سار عزمي إلى قوم وإن كثروا	ألا رمى شعبهم بالحزم فأنصدعا
ولا أقول إذا ما الأمر نازلني	يا ليتك كنت مصروفاً وقد وقعا
حق أجليه قهراً بمعزّم	كما يحلي الدجى بدرّ إذا طلعا
قوماً قتلت وقوماً قد نفيتهم	ساموا الخلاف بارض الغرب والبدعا
كلا جزيتهم صدعاً بصدعهم	وكل ذي عمل يُحزى بما صنعا

ولا شك أن هذا الشعر يتصف بالفصاحة والقوة والصدق والاجادة. ومن
شعر الأمير الثاني أبو العباس يفخر بنفسه وحسبه :

أليس أبي وجدي أوطاني	وجدت أبي وعمي الرقابا
ورثت الملك والسلطان عنهم	فصرت أعز من وطىء السرابا
وقد منى الخلائف واصطفوني	فمن مثلي قديماً وانتسابا
أنا الملك الذي اسمو بنفسي	فأبلغ بالسمو بها السحابا
إذا نعت عن كرمي ومجدي	وجدتني المصاصة واللبابا
أظّل عشيرتي بجناح عزي	وامنعها الكرامة والثوابا
واصطنع الرجال وأطبتهم	واغفر للسيء إذا أتابا
واسمو بالحميس إلى الأعداء	فأكسر بالعقاب لها العقابا
أنا ابن الحرب ربتني وليداً	إلى أن صرت ممتلئاً شبابا
لعمري أهلك ما أن عبت قومي	وما أخشى بقومي أن أعابا
بنيت لهم مكارم باقيات	إذا ما صارت الدنيا خرابا

ومن مشاهير شعراء العصر الاغلي بكر بن حماد الزناتي في القرن الثالث
وقد نحى في شعره منعى الزهد والتأمل وكان قد ارتحل الى الشرق والتقى
بأبي تمام ودعبل الخزاعي ثم عاد الى القيروان ، ومن اشعاره في الزهد قوله :

قف بالقبور فنادي الهامدين بها	من اعظم بليت فيها واجساد
أين البقاء ، وهذا الموت يطلبنا	هيات هيات يا بكر بن حماد
بيننا ترى المرء في لهو وفي لعب	حتى تراه على نعش واعواد
هذا يباكر دنياه منغصة	فيها حزازات احشاء واكباد
فكلنا واقف منها على سفر	وكلنا ظامن يحدو به الحادي
في كل يوم نرى نعشاً نشيعه	قرائح فارق الاحباب او غاد

اما القرن الرابع الهجري الذي كان الحكم فيه بأيدي الفاطميين فقد
اتسعت فيه النهضة الادبية وبلغت شأواً بعيداً سواء في كثرة الادباء او في
مدى ما وصلوا اليه من تفوق وبراعة في فن القول شعره ونثره على السواء .
ومثلما رأينا العصر الاغلي يبدأ بمؤسسه ابراهيم بن الاغلب نرى العصر
الفاطمي يبدأ ايضاً بمؤسسه عبيدالله المهدي المتوفي سنة ٣٢٢ فقد وصف
بأنه : « كان رجلاً الدنيا دهاء وعقلاً ، متضلماً في العلوم والآداب ، عارفاً
بالسياسة وتدبير الملك ، ومن شعره الذي كتبه الى بعض المخالفين المنشقين
عليه قوله :

فإن تستقيموا أستقم لصلاحكم	وان تعدلوا عني أرّ قتلكم عدلاً
واعسلو بسيفي قاطعاً لسيوفكم	وادخلها عفواً واملؤها قتلاً

ومن الشعراء الكبار الذين يباهي بهم الشعر المغربي في الدولة العبيدية
الشاعر المشهور ابن هانئ الاندلسي ، وقد لقب بالاندلسي لانه اقام بعض
الوقت في هذه البلاد اما ابوه فمن المهدي . وقد لازم المعز لدين الله الفاطمي
واخلص له الود والمدح ، وكانت مكانته عنده كما كانت مكانة المتني عند

سيف الدولة . وقد خلد وقائعه العظيمة في اشعاره والحمد لله بأسطوله العظيم .
وستجد تفصيل ذلك في ترجمة حياته . اما ما يهمنا ان نذكره هنا ، فهو ان
ابن هانئ قد غطى على جميع الشعراء المغاربة في عصره وبزهم في بلاط المعز
وما اكثر ازدهارهم يومئذ على هذا البلاط ، كما غطى المتنبي وبز كل الشعراء
في بلاط سيف الدولة .

ومن علماء اللغة في هذا العصر نذكر ابا عبدالله محمد بن جعفر القيرواني
وهو شيخ ابن رشيق وقد نقل عنه ابن رشيق في كتابه العمدة كثيراً من
دروسه ومحاضراته في اللغة والادب . ومن هؤلاء ايضاً ابو عبدالله الخشني
الضرير وهو ايضاً من شيوخ ابن رشيق وقد قال عنه : انه كان مشهوراً
بالنحو واللغة مفتقراً اليه فيها بصيراً بغيرها من العلوم ، كما كان شاعراً
مطبوعاً .

هـ - النقد الادبي :

لم تكن حركة الشعر قد نضجت وحدها في المغرب بل قد ظهر ونضج الى
جانبيها - وهذا من مستلزمات النهضة الأدبية - حركة نقد أدبي قوي
بدأت أول أمرها تتفأ لا قواعد لها في القرن الثاني، ونضجت في القرن الثالث
وبلغت أوج ازدهارها في القرن الرابع ومنتصف الخامس. ففي القرن الرابع
مثلاً نجد عبد الكريم النهشلي ينقد الذوق الأدبي على النحو التالي :

« قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد، فيحسن في وقت ما لا يحسن
في آخر ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره . ونجد
الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله، بعد
الا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال وجودة الصنعة . وربما استعملت
في بلد الفاظ لا تستعمل كثيراً في غيره ، كاستعمال أهل البصرة بعض كلام

أهل فارس في أشعارهم ونوادير حكاياتهم » .

ومن ذلك أيضاً قول إبراهيم الحصري صاحب كتاب زهر الاداب عن النقد الأدبي وتقسيم الشعر من الناحية الفنية :

« الشعر مطبوع ومصنوع فالطبع الجيد الطبع مقبول في السمع ، قريب المثال بعيد المثال ، أنيق الديباجة رقيق الزجاجة ، يدنو من فهم سامعه كدلوّه من رهم صانعه . يطرد ماء البديع على جنباته ، ويجول رونق الحسن في صفحاته . وحمل الصانع شعره على الاكراه في العمل بتنقيح المباني دون اصلاح المعاني ، يعفي اثار الصنعة ويطنفي أنوار الصبغة ، ويخرجه الى فساد التعسف وقبح التكلف ، أحسن ما أجري اليه وعول عليه هو التوسط بين الحالين والمنزلة بين المنزلتين من الطبع والصنعة » .

ولعل اعظم حدث في تاريخ النقد الأدبي في العربية هو ظهور كتاب العمدة لابن رشيق ، ويكفي للحكم على هذا الكتاب واعطاء فكرة عن قيمته الأدبية الرفيعة أن ابن خلدون قد قال عنه : « هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة - يعني النقد - وأعطاها حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله » . وكتاب العمدة نقد أدبي صميم تناول فيه مؤلفه نقد الشعر عامة ونقد عدد من الشعراء بصفة خاصة .

وليس ابن رشيق هو الوحيد من بين أدباء المغرب الذين اهتموا بهذه الناحية الهامة في أدب اللغة العربية ونعني بها النقد الأدبي بل كان هناك أيضاً زميله ابن شرف الذي يعد من أدباء المغرب الكبار قد ألف «رسائل الانتقاد» وهو عبارة عن مقامات يتحدث فيها بطلها عن الشعراء من المتقدمين والمحدثين. فيصف أحدهم في قول قصير ويبين مزاياه وعيوبه في ايجاز. ولكن ابن شرف فضلاً عن أسلوبه الذي هو دون أسلوب ابن رشيق لم يصل الى منزلة ابن رشيق في النقد .

فاذا وصلنا الى الدولة الصنهاجية . وهي الدولة التي ندرس شخصيات من عصرها فقد وصلنا الى ذروة الازدهار الذي بلغته الحضارة والثقافة العربية في هذه البلاد وقد وصف أحمد أمين عصر الصنهاجيين بقوله : « وفي الدولة الصنهاجية كان العمران قد استعكم والصلة بين المغرب وبين الاندلس ومصر والعالم الاسلامي كله قد تمكنت والحضارة قد ازدهرت^(١) » أما ابن خلدون الذي كان أقرب لهذا العصر من المرحوم أحمد أمين فقد وصف عصر الصنهاجيين وملكهم بقوله « كان ملكهم اضخم ملك عرف للبربر بافريقية » واتفقوا وايدخله .

و - العلوم والفنون :

الواقع ان الباحث لا يستطيع ان يتحرى الحقائق بدقة حول مدى تقدم العلوم والفنون في هذا العصر ببلاد المغرب بوجه عام ، ذلك ان الفتن المتتالية وخاصة غارات الهلاليين ثم النورمانيين في نهاية القرن الخامس الهجري ثم الاسبان في القرن العاشر وما قام به هؤلاء الاخرون بصفة خاصة من اتلاف لندخائر الكتب ، قد حرمتنا كثيراً من كنوز المراجع وما ابقاه المغاربة من تراث علمي رائع جليل .

والحق على اية حال هو ان الاغالبية قد وضعوا اسس نهضة علمية قوية بتأسيسهم « لبیت الحكمة » في القيروان على غرار ما وقع في بغداد ، وقد جلبوا اليها عدداً كبيراً من العلماء والاطباء والفلكيين والموسيقيين من المشرق .

ومن اشهر الاطباء القادمين من الشرق نذكر اسحاق بن عمران اليهودي

(١) ظهر الاسلام ج ٣ ص ٣٠٠ .

البغدادى في اواخر القرن الثالث، ومحمد بن فرج البغدادى الذي كان متخصصاً في الفنون الجميلة والصناعات المستظرفة^(١) .

ثم انتشرت هذه العلوم شيئاً فشيئاً، حتى اذا كان العصر الصنهاجي بلغت اقصى ازدهارها وانتشارها في كامل بلاد المغرب والاندلس ، وقد قال ابن خلدون في هذا الصدد :

« واستبحر عمران القيروان وقرطبة ، وكان فيها للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة . ورسخ فيها التعليم لامتداد عصورها ، وما كان فيها من الحضارة » .

وكان انتشار التعليم شائعاً بين الرجال والنساء ، وقد اشتهر عدد من النساء في الفقه ، منهن خديجة بنت سحنون كما كان منهن اديبات مثل مهربة بنت الحسن بن غلبون^(٢) .

وفي الجملة فان حركة العلوم قد كانت انشط في الطب والتاريخ وفنون الصناعات العملية منها في الرياضيات والفلسفة .

وقد قيل ان ابن الجزار الف وحده ما يقرب من ثلاثين كتاباً في الطب منها كتاب « طب الفقراء والمساكين » وكتاب « زاد المسافر وقوت الحاضر » وكتاب « الدم والتحذير من اخراجه لغير حاجة » .

كما الف كتباً اخرى في التربية والصحة مثل كتاب « سياسة الصبيان وتدريبهم » والف ايضاً في التاريخ مصنفات منها : « التعريف بصحيح التاريخ » ومنها « اخبار الدولة الفاطمية » .

(١) بساط العقيق ص ٣٥ .

(٢) بساط العقيق ص ٣٦ .

وقد تُرجم عدد من كتبه في الطب الى اللغة اللاتينية وظلت معتمدة في جامعات اوروبا العلمية الى عصر متأخر .

ومن علماء هذا العصر الذين اشتهروا في الهندسة والرياضيات ابو الطيب عبد المنعم بن محمد الكندي المتوفي سنة ٤٣٥ هـ وقد قال عنه القاضي عياض انه « كان دبر جلب ماء البحر من الساحل الى القيروان وسوقه خليجاً من هناك بنظر هندسي ظهر له ، ولكن اخترمته المنية قبل انفاذ رأيه فيه ، وظهور ما دبر منه » . وقال عنه عياض ايضاً : « ان له عدة تأليف في فنون شتى الا انه مات ولم يهذّبها^(١) » .

وهذا يعطينا فكرة عن مبلغ ما وصل اليه ازدهار العلوم وطموح العلماء بافريقية حتى اصبح العلماء يفكرون في مثل هذه المشاريع الضخمة ووضع التصاميم الهندسية لها ، مما تعجز بعض الدول في العصر الحاضر عن التفكير فيه رغم تقدم العلوم العصرية .

ولا شك ان تفكير هذا المهندس المغربي ، وطب ابن الجزار واضراهما من العلماء يعطي فكرة واضحة عما كان يمكن ان تصل اليه الحضارة العلمية في بلاد المغرب لو كتب لهذه البلاد ان تتمتع بحقبة طويلة من الاستقرار والامن اللذين هما اساس كل عمران ورفاء وشرط كل نهضة في العلوم والآداب .

ورغم الفتن المتتالية ، والاضطرابات الداخلية والهجمات الخارجية التي اصابته بلاد المغرب خاصة والعالم العربي بوجه عام ، فان القرن الخامس الهجري — الذي تؤرخ حياته الأدبية بافريقية — قد بلغت الثقافة العربية والعلوم العملية فيه ابعد مدى من الازدهار والانتشار ، خاصة في حوض البحر

(١) مجلة التراث التونسي ص ٢ ع ٣ مارس ١٩٤٥ .

المتوسط وعلى كافة شواطئه وجزره التي كانت كلها عربية واقعة تحت تأثير الثقافة العربية الممتدة اليها من سواحل المغرب العربي .

وهذا الكاتب الفرنسي « ماكس فانتاجو » يصف لنا مدى هذا الانتشار وقوة ذلك الازدهار ، في كتابه « المعجزة العربية » فيقول :

« اما فيما يتعلق بالسلطان الروحي فانه لم يصمد طويلا بعد الانهيار السياسي ، من ذلك ان الامراء الامويين في قرطبة وجدوا انفسهم جديرين بحمل لقب الخليفة ، ثم اندلعت بين القبائل ثورة هبأتها اسرة عربية تزعم انها قلتسب الى فاطمة ابنة النبي (صلى الله عليه وسلم) وسميت من اجل ذلك بالفاطمية . وطردت الامراء الاغالبة من القيروان واستت فيها خلافة شيعية كانت في الواقع اهانة كبرى للعباسيين . وقد قضى الفاطميون على العباسيين بعد ذلك حين طردوا حماهم من مصر ولم يبق من هؤلاء في الحقيقة غير خلفاء محليين خاضعين لوصاية ايرانية حقيقية .

« ومن الممكن الظن بأن هذه التجزئة التي جعلت الامبراطورية العربية دولا متمايزة متنافسة ان لم تكن متعادلة ، ستسيء الى خصوبة النهضة التي اطلقنا عليها اسم « المعجزة العربية » . انه من الصعب ان يصف المؤرخ تجزؤ امبراطورية عظيمة دون ان يستعمل مرغما لغة تثير في ذهن القارئ صورة جسد متعفن ممزق الاعضاء . واذا كانت هذه الصورة صادقة في بعض الاوقات فهي في بعضها الآخر خادعة كاذبة . ومن الخير ان نستعمل التعابير البيولوجية حين نتحدث عن تجزؤ الامبراطورية العباسية . ان اسبانيا ومصر وفارس لم تنفصل عن الامبراطورية كما تنفصل الاعضاء عن الجسد بل هي ثمرات ناضجة سقطت من شجرة صحيحة فوزعت بذورها حولها .

« لقد افاد هذا التجزؤ « المعجزة العربية » وكما ان موت الاسكندر سبب نشوء الممالك التي اشاعت الحضارة الهلينية فان نشوء المقاطعات التي كانت

تابعة لمركز الخلافة احدث عواصم تكونت فيها بلاطات رائعة غنية تركزت
انظار ملوكها في بغداد ساجدين منها نموذجاً يقلدونه ويحذون حذوه . كان
لهذا التجزؤ شخير اثر في تطور الحضارة ونجاحها . كما امن انتشار المعارف
اليونانية والاعمال العربية بسرعة غير منتظرة . وبفضل هذا الحدث اصبحت
تلك المعارف والاعمال معروفة مفهومة منذ القرن العاشر الميلادي بين القوقاز
والبيرويليه ومن بخارى حتى قرطبة .

« ومن الحق ان نعترف بأن ضياع الامبراطورية لم يسوئ الى بغداد الا قليلا
فاذا خسرت هذه المدينة لقبها كعاصمة سياسية فقد اكتسبت بفضل «المعجزة»
العربية ، لقب العاصمة الفكرية ، ولئن لم تعد روما ، للمسلمين فقد اصبحت
« الثغمة » لهم ، وهذا في الحقيقة اروع وادعى الى الغبطة .

« كانت المعارف العربية تلتشر في الوقت نفسه في الطرف الآخر من العالم
المتمددين عبر اسبانيا بفضل بلاط الامراء الامويين ، وبالرغم من طابع الحذر
الذي اتسمت به علاقات هؤلاء بالخلفاء العباسيين فقد استقبلوا ترجمات
مؤلفات ارسطو منهم بشغف وحماسة وكذلك مؤلفات افلاطون وارخميدس
وبطليموس الى جانب الآثار الرائعة للرياضيين والفلكيين العرب في بغداد .

« وان ما عرفناه من انهم جمعوا اوائل القرن العاشر اكثر من ٤٠٠،٠٠٠
مجلد والكتب حينئذ نادرة وثمينة ، يساعدنا على تصور المجهود الجبار
والارادة العنيدة اللذين ساعدا على جمعها .

« وبفضل هذه المكتبة اصبحت قرطبة ، كبخارى ، مركزاً فكرياً
مشهوراً اجتمع فيه الطلاب العرب الاوروبيون وزارها عدد من المسافرين
الغربيين الذين اعتادوا رؤية القرى الهزيلة في بلاد الفال وجرمانيا وكانوا
يحملون روعة بغداد ، بل وعظمة بيزنطة ، هؤلاء جميعاً اصابهم ذهول حين
رأوا الثلاثمائة مسجد في قرطبة ، فسموها « لؤلؤة العالم » .

« والواقع ان قرطبة سنة ٩٢٩ م ، والتي لم يقل عدد سكانها عن نصف

مليون قد اعتبرت نفسها منافسه لبغداد ، واتاحت لسلطانها القوي الامير عبد الرحمن الثالث الجرأة على المناداة بنفسه خليفة للمسلمين .

« كانت مصر آخر مناطق الامبراطورية العباسية تمتعاً بالاستقلال التام ، ولكنها لم تتأخر ، وهي ذات التربة الخصبة ، عن امتاع القاهرة عاصمتها الشابة بكل ثروتها فسمح لها ذلك بمنافسة بغداد وقرطبة .

« لقد اسس الخلفاء الفاطميون في القاهرة بعد سنوات قليلة من استقرارهم فيها جامعة هي جامعة الازهر (٩٧٨ م) وما تزال هذه الجامعة قائمة حتى اليوم ومن الواجب اعتبارها سيدة الجامعات المعاصرة لولا خطأ ارتكبه بعضهم ، كما بنوا في الوقت نفسه مرقباً حقق فيه ابن يونس الفلكي نجاحات هامة في علم المثلثات بالاضافة الى مكتشفات فلكية قيمة ، وقد اجتذبوا الى مؤسساتهم العلماء المشهورين فجاء ابن الهيثم ، العالم الطبيعي ، وهو من مواليد البصرة ، الى القاهرة ليدرس فيها زيادات نهر النيل ، الذي فكر بتنظيم سيره . ولما استقر به المقام أدرك بثاقب نظره استحالة المهمة وبقي في مصر وتابع دراساته في الهندسة وكتب مؤلفه في علم البصريات الذي اشتمل لأول مرة على وصف علمي للانعكاس الضوئي » .

وهكذا « كانت المعجزة العربية تنتشر من الشرق الى الغرب ، من حلب الى بخارى ، من القاهرة الى قرطبة ، بفضل انقسام الامبراطورية . فأسست في كل مكان مدارس وجامعات ومكتبات شاعت فيها حيوية مثيرة ، وفي كل مكان ظهرت الرغبة في التشقف واكتشاف الحقيقة كما كان الامر في بغداد قبل ذلك بقرن واحد ، وفي كل مكان انتشرت وصفات الأطباء والكيميائيين وخصائص الابرة المغنطة واسرار صانعي الورق وأساليب صهر الحديد ، ثم اجتازت المتوسط من اقصاه الى اقصاه بواسطة صناع دمشق وحملت معها الى سكان طليطلة ثروة كبيرة . وتجاوز اشعاع هذه الحضارة العربية حدود المناطق التي كان يشرف عليها العرب . ومنذ توحدت شواطئ المتوسط

الشرقية والجنوبية والغربية تحت سلطان واحد بالإضافة الى أكثر الجزر التي تفصلها امواج هذا البحر ، صقلية ، الباليار الخ ... ظهرت يقظة تجارية حقيقية سمحت للدينار الذهبي والثقافة العربية بأن يسيرا معاً طوال الطرق التجارية الجديدة بعيداً عن العالم الاسلامي . فأصبح المتوسط الذي كان فيما مضى لاتينياً ، بجرأ عربياً حقيقياً ، واصبحت العربية في كل شواطئه لغة دولية للتجارة والعلم . اما في الشعر فقد كانت لغة الطراز الاخير ، كما أعلن علماء الجمال الاندلسيون استغناءهم طوعاً عن الادب اللاتيني الفقير من اجل « بضعة أبيات من الشعر العربي » كما رثي بعض من الأساقفة الكاثوليك يتركون اللاتينية وهي لغة الدين المسيحية الغربية ليكتبوا باللغة العربية .

« وممكن في ساليرو من ايطاليا ومونبيلييه من فرنسا أطباء عرب ويهود أتوا من اسبانيا وأسسوا في هاتين المدينتين مدارس طبية قدر لها ان تلعب فيما بعد دوراً مهماً في تاريخ الحضارة بعد ان انتقلت نقطة ارتكاز العالم المكري من الشرق الى الغرب^(١) » .

(١) المعجزة العربية ص ٦٢ - ٦٧ .

٥ - الشعر والنثر

استعرضنا فيما سبق تطور الحياة العلمية اجمالاً في المغرب خلال العصور السياسية المختلفة، ونتحدث الآن عن خصائص الشعر والنثر في عصر الازدهار الادبي .

أ - الشعر :

كان لبذخ الدولة الفاطمية ثم الصنهاجية دور كبير في طبع الشعر وخاصة المدح بطابع التأنق الذي يبلغ احياناً درجة التصنع البارز والمبالغة المكشوفة وان كان هذا الشعر لا يخلو من رقة وسلاسة تغطي بعض الشيء فقره في العمق الفكري والتجربة النفسية .

لهذا يمكن ان نحصر طابع الشعر في غلبة الصنعة عليه والميل في الابتكار الى التفنن اللفظي والجرس الموسيقي اكثر من الغوص على المعاني وتعمق الافكار . ويتمثل هذا في كثرة استعمال البديع والاستعارات ، كما تتمثل الرقة في هجر الكلمات الغريبة هجراً يكاد يكون تاماً .

هذا من حيث الاسلوب الفني للشعر ، اما من حيث موضوعه فان الوصف

يأتي في الدرجة الثانية بعد المدح عند الشعراء ، بل كثيراً ما نجد الشعراء يسغرونه للتنوع في المدح أو في الغزل ، وخاصة وصف الممارك والاماطيل العربية ومظاهر البذخ التي كان يعيشها الامراء ويشاركون فيها الشعراء .

ويتناول الوصف كذلك مظاهر الطبيعة في البر والبحر ، ويتحدث عن الزهور والفواكه والحيوان كما يتناول الحياة الاجتماعية كمجاسس اللهو ومشاكل الجيران .

كذلك ظهر موضوع جديد بعد خراب القيروان وهو رثاء هذه المدينة ووصف ما كان لها من حضارة وعمران ، واطهار الشوق والحنين اليها .

والى جانب الشعراء الكبار امثال ابن هانئ وابن رشيق وابن شرف ، وعلي الايادي والحصري الضير ، الذين تغني شهرتهم عن الاستشهاد بشعرهم نذكر هنا نماذج قليلة من شعر بعض الشعراء المغمورين في هذا العصر لنكون فكرة صحيحة بقدر الامكان عن هذا الشعر وقيمه الفنية والموضوعية .

ف نجد مثلاً ابن ابي زيد القيرواني الذي اشتهر بالفقه ، ولكنه اهتم بالادب ايضاً فترك آثاراً في النثر والشعر منها قوله في الحكمة :

تأبى قلوب قلوب قوم	وما لها عندها ذنوب
وتصطفى انفس نفوسا	وما لها عندها نصيب
ما ذاك الا لمضمرات	اضمرها الشاهد الرقيب

فانت ترى مدى ما في هذه الابيات من برودة شعرية ، وتشبع بالفقه رغم المحسنات البديعية الفاشلة .

ونجد ابن عبدون الوراق وهو شاعر تغلب عليه الصنعة بصورة فاحشة ، لم يستطع ان يتخلص منها حتى في حال حزنه ، كقوله يرثي زوجته :

اسكنته سكني ورحت كأنني في الارض لا بشراً ارى من بعده
طال انتظاري للهدوء وليس لي جفن يطابق جفنه في رده
وجهدت ان ابكي فلم اجد البكا ماء بخدي والتراب بخده

فأنت تلاحظ مثلاً ما في عجز البيت الاخير من تصنع في تكرار لفظة
« نحد » عن قصد وهو فني لا يتلاءم مع موقف الحزن .

ومن هؤلاء الشعراء ايضاً محرز بن خلف الذي عالج موضوعاً اجتماعياً
هاماً وهو الظلم فشغله التزييق اللفظي عن التعمق في افكار الموضوع ،
كقوله :

... فكم ذا رأينا ظالماً متجبراً يرى النجم تيباً تحت ظل ركابه
فلما تمادى واستطال يحوره اتاخست صروف الحادثات ببابه
فلا فضة تحميه عند انفضاضه ولا ذهب يحميه عند ذهابه

على ان لابن خلف قصائد لا تخلو من جودة كوصفه لاطلال قرطاجنة
بقوله مخاطباً آثارها :

تصفق فيك الريح من كل جانب وفرق منك الدهر ما قد تجمعا
فترق ذاك الشمل بعد اجتماعه فله دهر ما اغر وافجمعا
ثم يقول عن بناتها وساكنيها :

... فلم يغن عنهم ما بنوه وشيدوا وما منعوا الدهر مع من تمتعا
وساروا الى من سار من كان قبلهم فيا لفراق القوم ما كان اسرعاً
وقد وسدوا بعد الحرير جنادلاً ولم يستطيعوا للحوادث مدفعاً

ومنهم ابو اسحاق ابراهيم بن القاسم ويعرف بالكاتب الرقيق ، وكان
شاعراً مجيداً رغم انه لم ينل من الشهرة ما ناله كبار الشعراء في عصره ، فمن

شعره يصف الأمير باديس وهو في معركة من معاركه الحربية :

... والخيـل تعبر بالهامات خائضة من سافح الدم مجرى قاني الفلق
والبيض في ظلمات النقع بارقة مثل النجوم تهاوت في دجى الغسق
وقد بدا معلما باديس مشتهرا كالشمس في الجو لا تخفى عن الحدق
تعلو عمامته الحمراء غرته كأه قمر في حمرة الشفق

وانت ترى ما في هذه اللوحة من انسجام في الالوان اجاد الشاعر ابرازها
في صورة من الجمال الرهيب . ويكفي هذا الشاعر ما اطلقه ابن رشيق علي
شعره من حكم صائب عندما قال : « .. هو شاعر سهل الكلام محكمه ،
لطيف الطبع قويه » .

ب - النشر :

يمكن ان تقسم النشر في هذا العصر كغيره من العصور الى ثلاثة انواع
رئيسية :

١ - النشر الاداري الذي يستعمل في مراسلات الدولة واجهزة القضاء
والجيش ... وأحسن من يمثل هذا النوع من النشر في عصرنا هذا هو علي بن
أبي الرجال الذي كان رئيساً لقلم المراسلات في دولة المعز بن باديس^(١) وعهد
ابن عطية بن حيان الكاتب .

وهذا النوع من النشر لم يصلنا منه شيء كثير ، لان المؤرخين - كما
يبدو - لم يعمنوا به ، رغم ما له من اهمية ، خاصة في العصر الصنهاجي ،
وبعده . وقد ظل مستعملاً في صقلية وجنوب ايطاليا حتى بعد زوال الحكم
العربي منها ، اذ بقيت العربية هي اللغة الادارية في صقلية وجنوب ايطاليا
اكثر من قرن .

(١) بساط العقيق ص ٣٨ ،

٢ - اما النوع الثاني من النثر فهو النثر العلمي ونعني به ما كان مستعملاً في التأليف كالفقه وفنون اللغة والطب والتاريخ والجغرافية الخ . ومن ابرز كتاب هذا النوع نذكر ابن الجزار الطبيب وابن ابي زيد الفقيه ، وابراهيم الرقيق في التاريخ ، واما العرب التميمي المؤرخ النسابة .

٣ - اما النوع الثالث من النثر فهو النثر الادبي الذي يهمني هذا الكتاب اكثر من سابقه ، فقد كان في هذا العصر مطبوعاً بطابع الصنعة عند اغلبية الكتاب مهما كانت طبقتهم ، ولم يسلم منه الا ابن رشيق ، اما معاصروه الآخرون فقد جرفهم هذا التيار الذي كانوا يرون فيه الانموذج الراقى في اساليب الكتابة والبلاغة . وكأنهم اتخذوا من اسلوب اصحاب المقامات في المشرق رائداً لهم في النثر الادبي .

ومن مظاهر الصنعة الشائعة عندهم ، التزام السجع ، والاكثر من الاستعارات وانواع المجاز ، والتأنق اللفظي الخ .

وطبقات الكتاب في هذا العصر كثيرة متعددة ، كتعدد طبقات الشعراء ولا شك ان ابن رشيق يأتي في طبقة الطبقة الاولى ويليه ابن شرف ثم ابو اسحاق الحصري ، وقليلهم طبقة اخرى تتكون من عدد كبير من الكتاب الذين لم ينالوا من الشهرة ما نالته الطبقة الاولى . ونذكر في طبقة الطبقة الثانية عبد الكريم النمشلي الذي تتلمذ عليه ابن رشيق في النقد الادبي ، وابن الربيب المعروف بالقاضي التاهرتي . ومن المفيد ان نأتي هنا ببعض الفقرات من رسالة بعث بها التاهرتي الى صديق له في الاندلس ، لانها تعطينا صورة عن نوع من المراسلات التي كان يتبادلها الادباء في ذلك العصر ، ونوع الشواغل الفكرية التي كانت تدور عليها هذه الرسائل :

« ... وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم ، كل امرئ منهم قائم في ظله لا يسبح ، وراغب على كعبه لا يتزحزح ، يخاف ان صنف ان يعنف ، وان

الف ان يخالف ولا يؤلف ، لم يشعب منهم احد نفساً ، في جمع فضائل اهل بلاده . على انه لو اطلق ما عقل الاغفال من لسانه ، وبسط ما قبض الاهمال من بيانه ، لوجد للقول مساعاً ولم تضق عليه المسالك ولم تخرج به المذاهب .. فاذا اخبرته منيته دفن معه ادبه وعلمه ، لمات ذكره وانقطع خبره ، (١) .

ومن هذه الطبقة نذكر الامام ابن القزاز محمد بن جعفر صاحب المعجم الكبير المسمى « الجامع في اللغة » وهو يعتبر من امنات كتب اللغة ، وكان القزاز استاذاً لابن رشيق وابن شرف وطبقتهما ، وترك تأثيراً كبيراً في شخصية ابن رشيق خاصة ، وهو كثير الاستشهاد باقواله في « العمدة » .

ومن هذه الطبقة ايضاً ، ابن فضال الجاشعي وعلي بن القطاع الصقلي وعثمان بن علي السارقوسي ، وغيرهم كثيرون .

(١) المنتخب المدرسي ص ٦٥

٦ - مميزات الأدب

في المغرب والاندلس

تمهيد :

حاولنا ان نحصر بحثنا لحد الآن في ثقافة المغرب وتاريخه الادبي ، لان هذا الموضوع قد امله مؤرخو الادب العربي في العصر الحديث ، وخاصة الكتب المدرسية الخاصة به ، والتي وردت علينا من المشرق ، وهي المستعملة وحدها في مدارسنا وعليها فقط يعتمد معلمو الأدب العربي واساتذته

ولهذا سنتحدث في هذا الفصل عن عنصر جديد في تاريخ الأدب المغربي وهو مميزات الثقافة والأدب في الأندلس والمغرب ، باعتبارهما وحدة ثقافية متشابهة ذات طابع خاص ، يختلف بعض الشيء عن طابع الثقافة والأدب في المشرق .

ونسارع الى القول بأنه لا توجد فروق اساسية بين المغرب والمشرق في الثقافة والأدب ، وكل ما هنالك هو اختلاف في الالوان زاد في تنويع الأدب العربي وتوسيع ثروته .

أ - عناصر التشابه :

١ - كان الأساس الأول للثقافة والادب في المغرب والأندلس هو القرآن وعلوم الدين واللغة والأدب الجاهلي تماماً كما كان الامر في المشرق .

ثم ان العنصر البشري الذي كون الأدب في المشرق كان هو نفسه الذي كونه في المغرب والأندلس ، ونحن نعلم أن الجيوش العربية التي فتحت المغرب والأندلس قد استقرت فيها . وما لبثت القبائل العربية ان توافدت على المغرب والأندلس وظلت الهجرة أمامها مفتوحة طوال القرون الخمسة الاولى للإسلام ، وكان في طليعة الوافدين من قبائل عدنان وربيعة وغطفان وتميم وكنانة وقيس وتغلب . وكانت أغلبية العرب الوافدين عدنانيين .

٢ - كانت بغداد طيلة القرون الثلاثة الاولى مهيمنة بثقافتها على العالم العربي شرقيه وغربيه على السواء ، وكانت ثقافتها خلال المدة نفسها تشع على مختلف الاقطار منها كانت بعيدة ، فتستورد اليها العلماء^(١) ويقصدها طلاب المعرفة من كل مكان ، فكان هذا عاملاً آخر لوحدية الثقافة والادب في جميع الاقاليم من الوطن العربي .

ولكن بعد هذه الفترة ضعفت مركزية بغداد الثقافية كنتيجة لتفككها السياسي وظهرت عواصم اخرى تنازعها هذه المركزية .

وما كاد ينتهي القرن الرابع حتى كانت قرطبة في الأندلس والقيروان في افريقية مركزين عظيمين للثقافة العربية ، يقومان بنفس الدور الذي قامت به بغداد من قبل .

(١) انظر ما فعله الاغلبة مثلاً ، فيما سبق .

وفي هذا الصدد يقول : « دي بور T.J.Deboer » ، في كتابه « تاريخ الفلسفة في الاسلام » .

« وكانت عناية أهل المغرب ^(١) محصورة في الرياضيات والعلم الطبيعي والتنجيم والطب كما كان الحال في المشرق اول الامر ، وكان الناس يدرسون الشعر والتاريخ والجغرافية بشغف عظيم ، ولم تكن موجة التفلسف الاجوف قد افسدت عقول أهل المغرب » ^(٢) .

٣ -- ومن هذا يتبين ان العناصر الاساسية الاولى التي كونت الثقافة العربية وخاصة الادب العربي في المشرق والمغرب قد كانت واحدة ، وهي العنصر الديني والعنصر البشري والعنصر السياسي والعنصر اللغوي ، واذن فلا غرابة في تشابه وجوه الثقافة والادب في المشرق والمغرب ، ذلك ان المثال المحتذى قد كان واحداً هنا وهناك ، فهو بمثابة الشجرة اصلها واحد فلا يمكن ان تختلف طبيعة ثمارها وان اختلفت الوانها .

ومن المفيد ان نعيد هنا فقرة من كلام « ماكس فانتاجو » ، كنا قد استشهدنا بها سابقاً ، لما تلقينه من ضوء كاشف لهذه النقطة :

« ... انه من الصعب ان يصف المؤرخ تجزؤ امبراطورية عظيمة دون ان يستعمل مرغماً لغة تثير في ذهن القارئ صورة جسد متعفن ممزق الاعضاء واذا كانت هذه انصورة صادقة في بعض الاوقات فهي في بعضها الآخر خادعة كاذبة . ومن الخير ان نستعمل التعابير البيولوجية حين نتحدث عن تجزؤ الامبراطورية العباسية ، ان اسبانيا ومصر وفارس لم تنفصل عن هذه الامبراطورية كما تنفصل الاعضاء عن الجسد ، بل هي ثمرات ناضجة سقطت

(١) يعنى بالمغرب الاندلس ايضاً .

(٢) ص ٢٧٨ .

من شجرة صحيحة فوزعت بذورها حولها .

ومن هنا نرى ان من ضعف النظر الحديث عن تقليد المغرب للمشرق ، وهو حديث افاض فيه القدماء والمعاصرون من مؤرخي الادب العربي ، حين رأوا في اوجه التشابه هذه مجرد تقليد ومحاكاة . فالقدماء قالوا عن العقد الفريد حين اطلعوا عليه كلمتهم المشهورة « هذه بضاعتنا ردت اليينا » وفاتهم ان الكتاب ليس الا ثمرة من تلك الثمرات التي اعطتها شجرة واحدة .

اما المعاصرون فقد ساروا على هذا المنوال ، فقلدوا القدماء وقالوا بقولهم ولم يحاولوا ان يبحثوا القضية في ضوء طرائق التحليل العلمي الحديث . ولا حاجة للاستشهاد بقولهم هنا ، فهو مبثوث في كتب تاريخ الادب الكثيرة .

المميزات :

هناك ظاهرة بارزة في الحياة الدينية والاجتماعية تميز بها المغرب عن المشرق وهي ظاهرة التصلب الديني والاعتدال فيما يتصل بحياة اللهو والمجون وخاصة عند الجماهير .

كما نجد الفقهاء انفسهم اكثر تشبثاً والتزاماً واحياءاً تزمناً في الحياة الدينية من زملائهم في المشرق الذين كانوا اكثر تسامحاً في الدين بوجه عام ، وأقل سخطاً على اللهو والمجون .

وكانت للفقهاء دائماً سلطة شعبية عظيمة ، ولهذا كان في امكانهم دائماً ان يثيروا سخط الجماهير على كل من يحاول التهتك الساخر من الادباء ، وكذلك ضد كل من يحاول ان يظهر افكاره من الفلاسفة ، وكان لهذا تأثيره الكبير في جعل الادب لا ينطلق الا في آفاق محدودة ، اما بالنسبة للفلسفة فقد قضي

عليها في اغلب المعصور ، وكانت الفلسفة دائماً في المغرب والاندلس تعتبر مرادفة للحاد .

وكان ولاية الامور دائماً يصانعون الرأي العام ، ويسلطون اضطهادهم على الفلاسفة والمفكرين الاحرار ، ومن أعظم احداث الصراع الفكري في المغرب ما حدث بين ابن خلدون وابن عرفة ، فقد كان الاول يمثل النزعة التحريرية في التفكير ويعتمد على العقل للتشبعه بالروح الفلسفي ، فلا يسلم بالخرافات ولا يقيم وزناً لمقاييس الفقهاء واسلوب تفكيرهم ، بينما كان ابن عرفة يمثل النزعة الفقهية الصميمة بما فيها من تشبث بالطرائق الفقهية الضيقة . وقد كانت هذه الخصومة سبباً رئيسياً من اسباب هجرة ابن خلدون من تونس الى مصر .

ومن قبل ابن خلدون كان ابن هانيء قد لقي اتعس مصير في الاندلس ، اما ابن رشد فقد اخرجت كتبه الى الشارع واحرقت امام عينيه . وكان هذا الاضطهاد يلاحق المثقفين الاحرار حتى وهم وزراء ، ومن هؤلاء ابن زيدون وابن الخطيب .

هذا فيما يتصل بالحياة الدينية وتلثيرها على التفكير الفلسفي وما ادى اليه ذلك من سطحية في الادب بالمغرب والاندلس معاً ، رغم ما في هذا الادب من جمال ظاهري وديباجة مشرقة .

اما ناحية الاعتدال الاجتماعي ، فنعني بها ان المغرب والاندلس رغم ما وصل اليه العمران والحضارة فيهما من بذخ فان التهلك الساخر قد بقيت دائرته محدودة بالنسبة لما كان عليه في المشرق . على ان هذا الاعتدال قد كان يتمثل بالخصوص في تحفظ الادباء من ان يمسا به جوهر العقيدة الدينية . ولعل هذا هو السبب في عدم وجود تيار من الزهد الفلسفي في الادب ، كما وجد في بغداد ليقاوم تيار التهلك .

وفي هذا المعنى يقول المستشرق « دي بور » :

« ان الشعراء كانوا يذكرون في قصائدهم أموراً ثلاثة : الحمر ، والمرأة ،
والغناء ، أما التفكير الاباحي الماجن ، والزهد الكثيب من جهة أخرى فلم
يكن يعبر عنها^(١) » .

هذه نظرة لا بد منها لكي نفهم مميزات الأدب في المغرب والاندلس من
حيث ضعف التفكير الفلسفي وعمق المعاني فيه .

واذا كان هذا عنصر ضعف في الأدب المغربي والاندلسي بوجه عام ، فقد
استطاع ان يعوضه بعنصر قوة وهو عنصر الجمال في الموسيقى والخيال والصور
المتنوعة التي استمدتها الشعراء من بيئتهم الطبيعية وما استقوت عليه من تنوع
واسع في الجمال .

فكان من اظهر المميزات في شعر المغرب والاندلس :

١ - جمال الصيغ اللفظية وأناقيتها ، وقد برع فيها بالخصوص ابن هانيء
وابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة وابن عبدون ولسان الدين بن
الخطيب ، ويرجع ولع هؤلاء بهذا الجمال الى جمال البلاد الاندلسية والمغربية ،
وافقتانهم به بل واعتزازهم ايضاً .

وقد كانت تشبيهااتهم وصورهم واخيلتهم لا تخلو أبداً من ذكر اخضرار
الاشجار وتدفق الماء مضيفين الى ذلك وصف البذخ المنزلي بما فيه من جمال لا
يقبل عن جمال الطبيعة ، كقول ابن خفاجة يصف نهراً :

قد رق حق ظن قرصاً مفرغاً	من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الفصون كأنها	هدب يحف بمقلة زرقاء
والريح تعبت بالفصون وقد جرى	ذهب الاصيل على لجين الماء

وقد افاض الاندلسيون والمغاربة في وصف مظاهر الجمال في بلادهم حق

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٢٧٨ .

كان هذا الباب اكبر جزء من شعرهم بعد المدح ، وقد وصفوا به الجبال والاشجار، والرياض والبساتين والانهار والبحيرات والابنية والقصور والملابس والحلى، ومجالس اللهو والقناء وكافة مظاهر حياتهم، ولهذا يكتسب هذا الشعر اهمية تاريخية الى جانب قيمته الادبية.

٢ - الاكثار من رثاء الممالك والدول التي تذهب بها الانقلابات المتكررة وفي هذا الباب تظهر قوة خاصة في الشعر المغربي والأندلسي، وهي قوة التأثير العميق الصادق . ودواوين الشعر مملوءة بهذا النوع وكله من عيون الشعر وحسان القصائد .

وفي طليعة هؤلاء ابن رشيق وابن شرف في رثاء القيروان وابن حمديس في رثاء صقلية وابن الرندي في رثاء الأندلس .

٣ - براعة شعراء المغرب والأندلس في الملاءمة بين مواضيع القصيدة ووزنها وهو ركن أساسي من أركان الجمال في الشعر، وقد عي به نقاد الادب العربي منذ عهد ابن قتيبة ، ولكن شعراء المشرق لم يوفقوا فيه مثل شعراء المغرب والأندلس .

٤ - تختلف شعراء المغرب والأندلس عن اللهاق بشعراء المشرق في قوة الأفكار وعمق المعاني . ولعل انصرافهم الى معالجة الجمال الموسيقي في الشعر قد فوت عليهم بلوغ مستوى زملائهم المشاركة في هذه الناحية .

٥ - ابتكار شعراء الأندلس لاوزان جديدة في الشعر العربي ، انفردوا بها عرفت بالموشحات .

وقد حاول المشاركة ان يقلدوهم فيها ، ولكنهم لم يبلغوا فيها شيئاً يذكر من النجاح ، وذلك راجع الى ان الموشحات قد ظهرت في عصر متأخر في الأندلس ، وصادف انتشارها في المشرق عصر الانحطاط الذي كان فيه الشعر قد انحط في جميع الانواع لا في الموشحات وحدها .

القسم الثاني

شخصيات أدبية

إبراهيم الحصري

(٣٣٠ - ٤١٣ هـ = ٩٤١ - ١٠٢٢ م)

حياته :

هو إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن تميم الانصاري ، ويكنى بأبي اسحاق وقد شهر « بالحصري » نسبة الى صناعة الحصر او بيعها ، وذكر المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب انها نسبة الى « الحصر » وهي قرية صغيرة كانت قرب القيروان ، كان يصنع بها الحصر .

نشأ إبراهيم في مدينة القيروان في اواخر عهد الفاطميين بافريقية ، واخذ الادب وفنون اللسان عن اعلام عصره بالقيروان .

ولما انتقل الفاطميون الى مصر واخذوا معهم كبار الشعراء خلا الجو لإبراهيم فبرز كأديب فذ تدور حوله الحياة الادبية ويتلمذ عليه الكثيرون .

وقد كان له نادر بالقيروان وقيل بالمنصورية (ضواحي القيروان) يقصده الادباء والمتأدبون ليأخذوا عنه ادبه وما يرويه من ادب غيره .

وتحدث ابن رشيق عن هذا الدور من حياة الحصري فقال : « وكان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ، وهو رأس عندهم وشرف لديهم » .

وزعم ابن رشيق الذي لحق الحصري في اواخر حياته وترجم له في كتابه المفقود « الانموذج » ان الحصري قد شرع في وضع كتاب عن الشعراء الافريقيين ، وجعلهم طبقات حسب السن ، قال ابن رشيق : « وكنت اصغر القوم سنأ فصنعت :

رفقا ابا اسحاق بالعالم حصلت في اضييق من خاتم
لو كان فضل السبق مندوحة فضل ابليس على آدم

قال : فلما بلغه البيتان امسك عن تأليفه ، واعتذر عنه ، ومات وقد سد عليه باب الفكرة فيه ولم يصنع شيئاً .

وقد علق المؤرخ ح ح عبد الوهاب على هذه القصة بقوله : « وانما استعمل ابن رشيق هذه الحيلة ، وقد نجح ، ليفوز دون غيره بتدوين حياة شعراء عصره . فصنف فعلا كتابه « الانموذج » العديم النظير » .

والذي يفهم من قصة ابن رشيق مع الحصري المتقدمة ان هناك تنافساً شديداً بين الرجلين رغم فروق السن بينهم ، ومع هذا التنافس فان ابن رشيق نفسه يعترف بمكانة الحصري الادبية اذ قال عنه في « الانموذج » : كان شاعراً نقاداً ، عالماً بتنزيل الكلام ، وتفصيل النظام ، يحب المجانسة والمطابقة ، ويرغب في الاستعارة تشبهاً بأي تمام في اشعاره ، وتبعاً لآثاره . وعنده من الطبع ما لو ارسله على سجيته لجرى مجرى الماء ورق رقة الهواء . وسارت تأليفه وانهاالت عليه الصلات من الجهات » .

نشأته :

لم يذكر احد شيئاً عن ايام الحصري الاولى ، فلا نعرف السنة التي ولد فيها ولا نعرف السنة التي مات فيها وان كانت اكثر المراجع تحدد سنة ٤٥٣ هـ لوفاته كما ذكر ذلك ابن بسام في ذخيرته ، وهي السنة المرجحة عند مؤرخي الادب المعاصرين ^(١) ، ويظهر انه مات في سن الثمانين . فان صح هذا تكون ولادته حوالي سنة ٣٧٠ هـ او ٣٨٠ .

كذلك لا نعرف شيئاً عن نشأته الاولى وعن ثقافته كيف تكونت ، وان كان بعض ثقافته يمكن استنتاجه من تراثه الادبي .

مؤلفاته :

١ - ديوان شعر ، ويعرف بديوان الحصري وقد ذكره ابن خلكان ، وهو كتاب مفقود غير ان نتفا كثيرة من اشعاره قد ذكرتها مصادر مختلفة ، وقد جمعها حسن حسني عبد الوهاب ونشر منها قسماً في كتابه « المنتخب المدرسي من الادب التونسي » .

٢ - « زهر الآداب ونثر الالباب » وهو كتاب وضعه على طريقة « البيان والتبيين » للجاحظ ، جمع فيه كثيراً من النصوص الادبية شعراً ونثراً ونشر بينها كثيراً من الاخبار والتوارد التي لا يخفى بعضها من غرابة .

وسياتي تحليل هذا الكتاب وبيان طريقة المؤلف واسلوبه فيه .

(١) منهم زكي مبارك وح ح عبد الوهاب ، مع اقتنا تلاحظ ان هذه السنة تجعله قد عاصر خراب القيروان ٤٤٩ هـ ، مع ان احداً لم يذكر عنه شيئاً بعد هذه الحادثة ، كما ذكر عن ابن رشيق وابن شرف مثلاً .

٣ - كتاب « جمع الجواهر في الملح والنوادر » كما سماه عبد القادر البغدادي اما المؤلف فقد سماه في مقدمته « جواهر النوادر ولمح الملح » .

٤ - « نور الطرف ونور الظرف » ويسمى ايضاً « النورين » ، وهو كتاب في حزم واحد ذكر عنه حسن حسني عبد الوهاب انه مختصر وضعه الحصري لكتاب زهر الاداب ، وقال ايضاً انه موجود في مكتبة « الاسكوريال » (اسبانيا) وتوجد نسخة اخرى في مكتبته الخاصة .

٥ - « المصون في سر الهوى المكنون » وقيل في الدر المكنون وهو ايضاً في الاخبار والنوادر والنصوص المختارة من الشعر ، ذكر عنه ح ح عبد الوهاب ايضاً انه يقع في مجلد واحد فيه حوالي اربعمائة ورقة ، وقال : ان نسخة خطية منه توجد بمكتبة شيخ الاسلام بالمدينة ونسخة اخرى في مكتبة « لايدن » « هولندا » .

٦ - « طيبات الاغاني ، مطربات القيان » وهو كتاب لم يصل الينا ، ولا نعلم اذا كان هذا هو اسمه بالضبط ام لا ، غير ان الحصري نفسه قد اشار الى كتاب له في هذا المعنى ونقل منه قطعاً في كتابه « جمع الجواهر » وقال عند نقله : « وانا اعيد منها هنا قطعة تراث اليها الارواح » .

زهر الآداب :

لا يوجد بين أيدينا من كتبه سوى اثنين هما « زهر الآداب » و « جمع الجواهر » ، والاول اكثر شهرة وانتشاراً وأعظم وأهم في محتوياته وقيمه الادبية لهذا سنقتصر عليه في البحث والدرس وتقدير مكانة صاحبه وقيمة العمل الذي قام به فيه .

ان كتاب « زهر الآداب » قد ألفه الحصري ، كما ذكر في مقدمته ،

ارضاء لرغبة ابي الفضل العباس بن سليمان ؛ وهذا الرجل كما وصفه الحصري نفسه ، كان أديباً شغوفاً بالكتب حتى انه كان يرتحل من مكان الى مكان للحصول عليها ، باذلاً في ذلك ماله مستعذباً فيه تعباً^(١) .

اما موضوع الكتاب فهو الادب كما كان يفهمه الحصري ومعاصروه في زمانهم . والادب عنده هو الشعر والنثر الجيد ، والاخبار والنوادر الغريبة والطرائف والملح الادبية . ويبدو ان الحصري قد قلد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين خاصة في طريقة التأليف ؛ اذ لا يوجد منهج منظم وقبويب دقيق في عرض مواد الكتاب ، وليس هناك اي ترتيب لموضوعاته ، غير اننا نحس اثناء مطالعة الكتاب بوجود عناية وقصد في الجمع والانتقاء ، لهذا فان أبرز ما يدرس في هذا الكتاب هو طريقة صاحبه في انتقاء النصوص .

مصادر الكتاب :

لقد تحدث الحصري نفسه عن مصادر الكتاب كما تحدث عن منهجه فيه ، فقال عن الاول : ، وألفت له (ابي الفضل العباس بن سليمان) هذا الكتاب ليستغني به عن جميع كتب الآداب اذ كان موشعاً (منتقى) من :

- ١ (بدائع البديع) اي بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ .
- ٢ (لآلي الميكالي) الامير ابو الفضل النيسبوري المتوفى سنة ٤٣٦ هـ .
- ٣ (شهي الخوارزمي) ابو بكر المتوفى سنة ٣٨٤ هـ .
- ٤ (غرائب الصاحب) ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ .
- ٥ (نفيس قابوس) ابن وشمجير المتوفى سنة ٤٠٣ هـ .
- ٦ (شذور) ابي منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ .

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٥ .

بكلام يمزج بأجزاء النفس لطافة وبالهاء رقة وبالماء عذوبة (١) ، .

ويلاحظ ان اكثر مصادره من كتب عصره ؛ اذ ان اصحابها قد كانوا معاصرين له وقد أشار الى بعضهم اثناء حديثه او نقله عنهم مثل ابي منصور الثعالبي .

ولكن الحصري لم يكتف في كتابه بالجمع والانتقاء بل أضاف الى ذلك خواطره وشروحه وآراءه الشخصية ، وعرض الجميع بأسلوبه الخاص وفهمه المستقل .

منهج الكتاب :

تحدث الحصري عن منهجه في كتابه فقال : « هو كتاب ينصرف الناظر فيه من نثره الى شعره ، ومطبوعه الى مصنوعه ، ومحاورته الى مفاخرته ، ومناقضته الى مساجلته ، وخطابه المبهت الى جوابه المسكت ، وتشبيهاته المصيبة الى اختراعاته الغريبة ، وأوصافه الباهرة الى أمثاله السائرة ، وجده المعجب الى هزله المطرب ، وجزله الرائع الى رقيقه البارع (٢) ، .

ويبدو من هذا الوصف لمنهج الكتاب ان المؤلف قد تعمد تنويعاً وتلويناً عامين كطريقة الجاحظ في التنويع والتلوين ، والغرض عنده من هذا هو بالضبط ما كان عند الجاحظ منه . فهو يعتقد — كما كان الجاحظ يعتقد — ان هذا المنهج الذي تختلط فيه ألوان الأدب بالأخبار والملح والفرائب هو أنفع وأيسر تناولاً لعموم القراء حتى لا يدب الى نفوسهم الملل من الاسترسال في نفس واحد بين ثنايا موضوع واحد. وهذا الحصري نفسه يدافع عن منهجه

(١) ج ١ ص ٥ .

(٢) ج ١ ص ٤ .

هذا كما فعل الجاحظ من قبله فيقول : « اذا كان الخروج من جد الى هزل ، ومن حزن الى سهل ، أنفى للكلل ، وأبعد من الملل ، (ثم استشهد بقول أبي العتاهية) :

لا يصلح النفس اذ كانت مدابرة الا التنقل من حال الى حال (١)

ويلاحظ مما تقدم ان غاية الكاتب هي قبل كل شيء ادبية محضة . ولكنه مع ذلك قد ذكر تنقلاً من الحوادث السياسية والتاريخية ، كما يغلب عليه الاحتشام والتعرج في نقل انواع معينة من النصوص الادبية . فقد اجتنب نقل كثير من أشعار المجون ، وزعم الحصري انه اجتلبها تديناً ، فقد أراد ان يبرهن عن تعلقه بالاخلاق بل قد ظهر في بعض مواقفه رجلاً متزمتاً حيث قال متحدثاً عن راشد بن راشد : « وله مذهب استفرغ فيه اكثر شعره وصلت الكتاب عن ذكره » وعلق الدكتور « زكي مبارك » على هذا التحفظ الاخلاقي عند الحصري بقوله : « ان حرص الحصري على الاخلاق ضيع علينا ما اعرض عنه من الآثار الادبية ، وكنا في حاجة الى ان نعرف كل ما ترك الأولون (٢) » .

« على ان الحصري لم يخل كنيابه من المجون ، بل ومن فاحش المجون ، وللقارئ ان يتتبع ما وقع من ذلك في الغاف الكتاب ليرى كيف غلب المؤلف على امره ، وأباح ما لا يباح (٣) » .

موضوعاته :

لقد رأينا ان الكتاب يتكون من مختارات ادبية اختيرت وجمعت وفق

(١) ج ١ ص ٥

(٢) ج ١ ص ١٤ من التقديم

(٣) ج ١ ص ١٤ من التقديم

غرض خاص ، اما موضوعاته فكثيرة ؛ ففيه الحكم ، والتراجم ، والوصف ، والمديح ، والهجاء ، والرثاء ، والرسائل ، والنسيب ، والنكت ، والاخبار ، ويتم بصفة خاصة بالكلام عن الصحابة والتابعين ، فينقل اخبارهم ويدون آثارهم . ورغم ان كتابه ادبي محض ، فانه قد اقحم فيه الكلام عن المصيبة في ابناء النبوة ، فتحدث عنهم هكذا : « قد نعي سليل من سلالة النبوة وفرع من شجرة الرسالة ، وعضو من اعضاء الرسول ، وجزء من اجزاء الوصي والبتول ^(١) » .

كذلك يوجه الحصري عنايته الى الاشراف فيضفي عليهم افضل الصفات ويتحدث عنهم في احترام واجلال .

ولا شك ان هذا يشير الى امرين اثنين :

١ - قد ين الحصري وشدة تعلقه بآل الرسول وهو ما يفسر لنا اجتنابه نقل اخبار المجان ونصوصهم في كتابه .

٢ - يدل هذا على ان الرجل قد كانت له نزعة سياسية خاصة ، هي التشيع لآل البيت . ولا ننس هنا ان النفوذ الديني للشيعة في ايامه كان لا يزال قوياً في شمال افريقيا ، خاصة في تونس ، رغم انتقال الفاطميين الى مصر ^(٢) .

ومن موضوعات كتابه الاساسية البلاغة والبلغاء ، واهتم كذلك بالآداب الاجتماعية في السلوك الفردي والعلاقات العامة ، وقد ذكر ما يجب في معاملة الملوك وما يفضل في الآداب العامة وما يتصل بكثير من الواجبات والحقوق

(١) ج ١ ص ٦٧

(٢) راجع في هذا الكتاب الحديث عن الحياة الدينية في المغرب .

الاجتماعية التي كانت مرعية في ايامه . وكل هذه المواضيع كانت متداولة في كتب الادب سواء في المشرق او في المغرب .

طريقته في اختيار النصوص :

لا شك ان اسلوب الحصري في كتابه كان اسلوب جمع وانتقاء من روائع الأدب وبدائعه ، وقد أشرنا فيما تقدم الى المراجع والمصادر التي اعتمدها في هذا الكتاب ، وكذلك الى منهجه في تأليفه ، ونذكر هنا طريقته في اختيار النصوص وما كان يعتمد في هذه الطريقة حتى جاء كتابه على الصورة التي عرف بها .

اختار الحصري نصوصه بعناية فائقة حسب ذوقه الشخصي من جهة ، وحسبما كان يفهم من البلاغة الادبية في عصره من جهة ثانية . وهو في كل ذلك واثق من اختياراته وذوقه ومن احكامه ايضاً كما يدلنا على هذا ما اثبتته بنفسه في مقدمة الكتاب وخاتمه .

ويمكن ان نعتبر طريقة الحصري في اختيار نصوصه تعتمد على النواحي التالية :

١ - الذوق الشخصي : يتحدث الحصري بنفسه عن اعتماده على ذوقه الشخصي في الاختيار فقال : « وبعد فهذا كتاب اخترت فيه قطعة كاملة من البلاغات ، في الشعر والخبر ، والفصول والفقر ، بما حسن لفظه ومعناه ، واستدل بفحواه على مغزاه ، ولم يكن شاردأ حوشياً ، ولا ساقطاً سوقياً^(١) .

واذا تتبعنا نصوص الحصري واختياراته في كتابيه زهر الآداب وجمع

(١) ج ١ ص ٣ .

الجواهر لجده قد عني هناية خاصة باختياراته وفق ما رسمه لنفسه من التجاه في البلاغة ، فهو لم يخرج عن ذوقه الا في القليل النادر .

٢ - الاستطراد في الموضوع الواحد بما يناسبه من نوادر واخبار وتراجم ومن استعمالات العصر البلاغية في الموضوع نفسه ، وهذا شائع في كافة اجزاء كتابه .

وبما ان هذا العنصر في الاختيار يؤلف ركناً اساسياً في طريقته ، فأننا نورد منه مثلاً .

يعقد الحصري مثلاً فصلاً عن اوصاف الخيل يبدأه برواية قصة عن فرس اهداه الحجاج الى عبد الملك بن مروان ، فيأتي بالوصاف التي ذكرها صاحب الفرس ثم ينتقل الى فرس آخر أهدي للسأمون ، ثم يأتي بقصة رجل اراد شراء فرس وما قيل فيه من وصف ، ثم يأتي بقول لمحمد بن الحسن بن الحرون يصف فرساً نثراً ، ثم يذكر ابياتاً لتأبط شراً يصف فيها فرساً ، ثم يروي قطعة من النثر لعقبة بن سفيان يصف خيلاً اهداها عمرو بن العاص لمعاوية ، ثم يورد ابياتاً شعرية للنابغة الجعدي في الموضوع ، ثم يذكر كلمات متتالية لبعض الاعراب ممن وصفوا الخيل وصفاً بليغاً شعراً او نثراً ، ثم يأتي بأبيات لأبي تمام في نفس الموضوع ، وبأبيات اخرى للبعري ، ثم ابياتاً لاسحاق ابن خلف وابن المعز وابن هانئ ، وعلي بن محمد الايادي المغربيين ويورد شعراً للمتنبي في نفس الموضوع ، ثم وصفاً نثرياً لبديع الزمان ، ثم يختم الفصل في النهاية بشرح مفردات من مقامة لبديع الزمان : « وسأقول في شرحه بكلام وجيز زيادة في الافادة » وهكذا ينتهي الفصل . وعلى هذا المنوال يسير في بقية فصول الكتاب ومواضيعه^(١) .

(١) ج ٢ ص ٣٢٣ - ٣٣٨ .

٣ - ميله غالباً الى انتقاء القصير من النصوص شعراً كانت او نثراً .

٤ - اختصار النصوص المطولة بطريقة لا تضيع من المعنى شيئاً ، ذلك انه يأخذ من النص فقرات كاملة متصلة متتالية العبارة كما فيها صاحبها دون ان يحذف منها شيئاً ، ولكنه يستغني عما زاد عن حاجته من النص الاصلي ، ومن امثلة هذا ما اختاره من مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة عن وحدة القصيد وعن السبب في استهلال القصائد بالسبب .

٥ - التنويع في النصوص مما يعرض به امام القارئ افكاراً متعددة في موضوع واحد وصور شتى لمواقف او عواطف متشابهة او متقاربة .

٦ - لا يصدر حكمه او يبدي رأيه في النص الا في القليل النادر ، واغلبية احكامه تكون بعبارة موجزة مقتضبة يكتفي فيها احياناً كثيرة بلفظ واحد او لفظتين مثل « الاستحسان » « يستحسن » « ومن جيد » الخ .

وهذا امر طبيعي اذ هو الذي اختار النصوص وتذوقها قبل اثباتها في كتابه ، والمفروض انه يختار ما يعتبره جيداً من النصوص ، خصوصاً وقد سبق له ان اعلن في مقدمة كتابه ان اختيار النصوص لا يقل عن تأليفها من الناحية الادبية ذوقاً وفهماً وفي هذا يقول : « وليس لي في تأليفه من الافتخار اكثر من حسن الاختيار . واختيار المرء قطعة من عقله ... اذ كان معلوماً انه ما انجذبت نفس ولا اجتمع حس ، ولا مال سر ، ولا جال فكر ، في افضل من معنى لطيف ، ظهر في لفظ شريف (١) » .

ولا شك انه في هذا يقلد او يتبع طريقة ابن عبد ربه في كتابه «المقد الفريد» الذي كان هو الآخر كتاباً جامعاً للنصوص والاخبار الادبية المختلفة . وقد قال

ابن عبد ربه في هذا المعنى بالدات ما نصه: « وانما لي فيه تأليف (الاخبار وفضل)
الاختيار وحسن الاختصار .. واختيار الكلام اصعب من تأليفه . وقد قالوا
اختيار الرجل وافد عقله » .

ولا شك ان الاقتباس والمحاكاة كانا رائدي الحصري في تأليفه لهذا الكتاب،
لأن ابن عبد ربه متقدم عنه بنحو قرن ونصف^(١) .

٧ - تعاليقه وملاحظاته حول المعاني الشعرية الواحدة التي تناولها عدد من
الشعراء ، وعلى الأخص بيانها او اشارته لما قد يكون المتأخر قد قام به نحو
شعر متقدم من اقتباس او تصرف او سرقة في المعنى . ومن أمثلة ذلك ما ذكره
عن الطرماح بن حكيم الطائي وعن ابن بسام .

« وقال الطرماح بن حكيم الطائي :

ألا ايها الليل الذي طال اصبح	بيوم ، وما الاصبح فيك بأروح
على ان للعينين في الصبح راحة	لطرحتها طرفيها كل مطرح

فنقل لفظ امرئ القيس ومعناه ، وزاد فيه زيادة اغتفر له معها فحش
السرقة .

وقال ابن بسام :

لا أظلم الليل ولا أدعي	ان نجوم الليل ليست تغور
ليلي كما شئت ، فان لم تزر	طال ، وان زارت فليلي قصير

وانما أغار ابن بسام على قول علي بن خليل فلم يغير الا القافية :

(١) ولد ابن عبد ربه عام ٢٤٦ ومات عام ٣٢٨ هـ .

لا أظلم الليل ولا أدعي ان نجوم الليل ليست تزول
ليلي كما شامت قصير اذا جادت، وان ظننت قليلي طويل

٨ - الموازنة : كثيراً ما يقوم الحصري بموازنة بين هدد من الشعراء او شاعرين في معنى من المعاني عاجله هؤلاء الشعراء ، كموازنته مثلاً بين البحتري وابي تمام وقد نقلها عن الحاتمي وموازنته بين العتابي والعباس بن الاحنف وقد نقلها عن الصولي^(١) وهو لا يتوسع في المقارنة حتى تكون بين شاعر وشاعر بما تفرضه المقارنة من دراسة لكلا الشاعرين بل يقتصر على المقارنة بين معنى ومعنى في بيت او اكثر . وغالباً ما ينقل هذا النوع من الموازنة عن غيره .

٩ - حفظه لحياة عصره الادبية بما ينقله من استعمالات معاصريه في شق المواضيع الادبية والاجتماعية ، وغالباً ما يذكرها تحت عنوان « ألفاظ لأهل العصر ... » ، وقد شملت هذه الاستعمالات شق المواضيع التي تناولها في كتابه ، فتارة في الاخلاق واخرى في وصف الثلج والبرد ، او في وصف القيظ والحر ، ومرة في وصف الليل ، واخرى في المدح او في التهنئة بالخلاص من الأسر . ولا ندري هل هذه الاستعمالات من تأليفه هو او انها شائعة بين معاصريه كمحفوظات لغوية يستعمل كل منها في مقامه او يستعان به للتعبير عما يناسبه ، وقد يكون هو الذي ألفها وعبر بها عما هو غالب في عصره ، والذي يرجح هذا هو اسلوب السجع الذي جاءت به هذه الاستعمالات مما يكاد يكون صورة طبق الاصل من اسلوبه الواضح كل الوضوح في مقدمة الكتاب وخاتمته .

١٠ - اعتداله في فهم البلاغة واعتباره لها وسطاً بين الغرابة والحوشي وبين الساقط والسوقي . وقد عني الحصري بعرض آراء الكثير من علماء البلاغة او من البلغاء مثل الروماني ، وابن المعتز ، وابن المقفع ، وعمرو بن عبيد والجاحظ ..

(١) ج ٣ ص ٦١٩ وج ٤ ص ٩٧١ .

ونقل الكثير من أقوالهم في البلاغة والفصاحة وما يتصل بها . وقد عرف الحصري البلاغة في مقدمته ، ومن تعريفه لها واختياراته يتضح انه من أتباع المدرسة الأدبية في البلاغة التي تعتمد على الذوق الجمالي وعلى المعنى الحسن في اللفظ الحسن ومن تعريفهم لها ما نقله الحصري من قول علي بن عيسى الروماني :

« البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة » .

وأما أبو هلال العسكري فقد عرفها بقوله :

« ان البلاغة هي كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن » ، وعندما نتبع أسلوب الحصري نجده قريباً من هذا النوع من البلاغة باستثناء المعرض الحسن فإن أسلوب السجع قد أفقد طريقته بعض جماها ، ولكن لا ننسى ان السجع كان مذهباً ملتبساً في عصره هند كثير من أهل القلم (١) .

ومما يدل على اعتدال الحصري في البلاغة هو انه لم يأت في نصوصه بما يخرج عن حدود تعريفه الأدبي لها وحديثه عنها . ويلاحظ هنا ان أغلبية نصوصه النثرية المختارة قد كانت خالية من السجع مما يدل على انه كان يلتزم المعاني الجميلة في أي صورة من اللفظ جاءت .

١١ - وأخيراً يجب ان نذكر ناحية ذات دلالة عظيمة في نصوص الحصري وهي نسبه النصوص التي اختارها إلى أصحابها وأحياناً إلى الكتب التي نقلها منها بدقة وأمانة قل وجودهما في كتب غيره الماثلة لكتابه .

١ ويجب ان نذكر ان لكتاب الحصري قيمة أدبية وتاريخية مزدوجة ، فهو كتاب أدبي ممتع لا يقل عن كتاب البيان والتبيين من ناحية نصوصه الأدبية ، كما

(١) راجع تفصيلاً كاملاً عن البلاغة ودرجاتها وأقوال البلغاء والعلماء في ذلك في صفحات ١٠٨ - ١٤٤ من الجزء الأول .

انه احسن منه عرضاً . هذا من الناحية الادبية واما من الناحية التاريخية فقد حوى معلومات ونصوصاً ادبية كثيرة ذات قيمة كبيرة في باب تاريخ الادب .

والغريب الذي يلفت النظر في هذا الكتاب ان نصوصه المختارة كانت كلها تقريباً من ادباء اهل المشرق باستثناء عسدد قليل منها لبعض المغاربة مثل ابن هانيء وعلي بن الايادي التونسي وهو في هذا يشبه صاحب العقد الفريد ، وهذا ما يعد نقصاً فادحاً بالنسبة لتاريخ الادب العربي في المغرب .

ولكن يظهر ان الحصري ، مثل ابن عبد ربه ، قد الف كتابه لاهل المغرب حتى يطلعهم على آثار المشاركة ويجعلها في متناولهم ، مهملآ آثار اهل المغرب لاعتقاده انها في متناول الجميع .

كما كنا نود لو ان الحصري لم يكتف بالاختيار والعرض ، بل اضاف الى ذلك احكامه وتحليله الادبي . ولكن لعله فضل ان يترك الاختيار في التذوق والحكم للقارئ ، ولانه لا يعتبر نفسه في هذا العمل ناقدآ مثل ابن رشيق بل جامعآ ومنتقياً فحسب .



ابن هانئ

(٣٢٠ - ٣٦٢ هـ = ٩٣٢ - ٩٧٣ م)

حياته :

كثيراً ما شبه ابن هانئ بالمتنبي وقرنت مكانته الادبية في المغرب بمكانة المتنبي في الشرق، حتى ان النقاد القدماء لقبوه بمتنبي المغرب وسنرى بعد دراستنا لشخصيته مدى التشابه بين الشاعرين وبين مكانتهما خصوصاً وقد عاشا في عصر واحد تقريباً وان لم يعيشا في ظل دولة واحدة ..

نشأ ابن هانئ في الاندلس وان كان ابوه من المهدية . عاش وترعرع تحت ظل دولتين عظيمتين احدهما دولة بني امية في الاندلس وثانيتهما دولة الفاطميين في المغرب . وقد قضى ابن هانئ طفولته وشبابه في الاندلس تعلم وتشقف فيها ، ولكنه لم يكن يحب دولة الامويين ولا يؤمن بحقها في الحكم . اذا كانت متشيعاً للفاطميين مثل ابيه ؛ وهم في نظره احق بالخلافة والحكم من الامويين والعباسيين معاً ؛ لانهم ورثة الرسول ومن نسبه .

ولد ابن هانئ في قرية من قرى اشبيلية سنة ٣٢٠ هـ وهو من اصل عربي صميم يتصل نسبه بالمهلب بن ابي صفرة الازدي القائد العسكري المشهور في دولة

بني امية بالشام . وكانت عائلة ابن هانيء مشهورة بالعلم كما اشتهر اجداده بعروبتهم وقصصانيتهم ، وهذا ما جعل ابن هانيء يشعر طيلة حياته باعتزاز الماضي ويفتخر باجداده ، وهذه ناحية من النواحي التي يختلف فيها عن المتنبي . فبينما ترى المتنبي يهمل الحديث عن اجداده وعن نسبه ويعتبر انه قد البسهم شرفاً ويقول :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسى فخرت لا يحدودي

نجد ابن هانيء يقول :

ذري اجدد ذلك العهد الذي اعيانا على الايام ان يتقشبا

وقد اجتمع لابن هانيء كل ما يطمح اليه من اجواء الثقافة واجداد الماضي ومكانة الحاضر . فعائلته عائلة علم ، والمدينة التي عاش فيها مدينة علم وأدب وفن ، وكانت الدولة الاموية في الاندلس ترمي الثقافة بكل عناية وخاصة الجانب الديني والادبي منها ، وكان الانصراف كثيراً الى ميادين الفنون التي ساعد ازدهارها في الاندلس ما كانت تتمتع به هذه البلاد من بيئة تنوع جمالها وبرع اهلها في الاستفادة منه والتغني به .

ويمكن القول بان ابن هانيء قد استفاد في شبابه من هذه البيئة اذ تلقى دراسة لغوية ودينية وأدبية واسعة ، وقد درس القرآن وعلومه وتأثر به في اسلوبه القوي وكان كثيراً ما يقتبس منه في اشعاره من ذلك قوله :

هب لي وزيراً من اخي استعن به وأشد به أزرى وأشركه في أمري

والظاهر ان ابن هانيء قد تعلم لغوياً عن ابن القالي صاحب كتاب الامالي في مسجد قرطبة : ذلك ان ثروة ابن هانيء اللغوية عظيمة غزيرة ، ومقدرته على التصرف فيها كبيرة لا يشاركه في هاتين الميزتين الا المعري والمتنبي . وكان

ابن هانيء في دراسته مولماً جداً بالشعر الجاهلي وهذا ما ترك في اشعاره الطابع الجاهلي الخشن .

والى جانب ثقافته الادبية واللغوية كان لابن هانيء ثقافة دينية فيها شيء كبير من التعمق الذي مكنه من دراسة المذاهب الديلية في ضوء تفكير فلسفي لا يخلو من سعة وعمق وقد تأثر من خلال دراسته الديلية وعن طريق أبيه بمذهب الباطنيين وما يوجد في هذا المذهب من تقديس للامام ، وقد ملأت نفسه هذه العقيدة الباطنية حتى لم يستطع ان يخفيها في محيط يناهض هذه العقيدة وفي ظل دولة هي من ألد أعداء الفاطميين ، ولكن نزعة ابن هانيء الفاطمية لم تمنعه من الاتصال ببعض رجال الدولة الأموية في الأندلس وخاصة امير اشبيلية . ويظهر انه لم يتصل بهم الا عندما اصبح فقيراً معدماً تماماً ، بعد ما توفي والده وأثلف هو ما خلفه والده من ميراث في المذات التي يسرف فيها اسرافاً كبيراً . ولكن مدائعه في هؤلاء الرجال لم تحفظ بين اشعاره الاخرى ، ولعله هو الذي قضى عليها لكي لا تعرف عنه حين انتقل الى بلاد الفاطميين . وكان الأندلسيون كثيري التعصب الديني لا يتسامحون مع من يحمل مذهباً دينياً وسياسياً غير مذهبهم . وكانوا بالخصوص لا يتسامحون مع من تشيع في افكاره نزعة الفلسفة ، لهذا ما كاد يترعرع ابن هانيء في وسطهم وتبرز شخصيته المذهبية والثقافية الفلسفية حتى اخذوا يضايقونه ويبغضون اليه المقام بينهم ، فاتهموه بالزندقة والكفر كما هي الحال بالنسبة لكل المثقفين الاحرار الذين لا يسايرون الجمهور والفقهاء في مذهبهم الديني وما يزال هذا الاتجاه التعسفي شائعاً الى اليوم بين المغاربة ، ونخشي ابن هانيء ان تتطور هذه التهمة فيذهب ضحية لها ، فهاجر نهائياً من الاندلس الى افريقية ، فقيراً طريداً او شبه طريد . وقد قيل ان امير اشبيلية هو الذي نصح ابن هانيء بالخروج من الاندلس خوفاً على حياته من الناس ، ولم يكن شاعراً قد نضج بعد ، وليس عنده من تجارب الحياة ما يمكنه من الاعتماد على نفسه . فقد كان وحيداً في بلاد يشعر فيها بالغربة الحقيقية .

وهكذا هاجر ابن هانيء وعمره لم يتجاوز السادسة والعشرين أي سنة ٣٤٦ .
وهكذا خرج ابن هانيء غير آسف على شيء مما كان عليه . ولا شك انه لقي
صعوبات وشدائد في طريق انتقاله الى موطنه الاصلي وفي هذا يقول :

أجزت عليها عابراً وتركها كأن المنايا تحت جنبي أرائك
وما نقموا الا قديم تشيعي فنجى هزبراً شدة المتدارك

في المغرب :

واخيراً استقر الشاعر في موطن والده المهدي وأخذ يلتهم الفرص ليظهر
شاعريته للناس وليعلم بها اولو الامر ولم تمض بضعة شهور حتى وقعت حادثة
كانت فرصة لكي يظهر فيها شاعريته ، وهي انتصار القائد الفاطمي جوهر على
نخوصم الدولة الفاطمية في سجلماسة ، فقد قضى على الثائرين فيها ووطد نفوذ
الفاطميين في مختلف انحاء المغرب ، فكانت هذه المناسبة عظيمة بالنسبة للشاعر
اذ أظهر فيها لأول مرة منذ قدومه الى المهدي قوته الشاعرية من ناحية وحماسته
لمذهب الفاطميين من ناحية اخرى ، فقد اطنب في هاته القصيدة في وصف
بطولة القائد جوهر وانتصاراته وشكر اخلاصه للخليفة المعز ، الا ان ابن هانيء
كان في الواقع قد علق آمالاً اكثر مما يجب على مدحه لجوهر ولكنه لم ينل ما
كان ينتظره لديه من الجوائز الكبرى ، ومع ذلك فقد بقي محتفظاً باعجابه به ،
اذ عباد بمدحه مرة اخرى بقصيدة مشهورة سجل فيها ما حققه هذا القائد
من نصر للفاطميين باستيلائه على مصر سنة ٣٥٨ هـ مدح المعز نفسه في السنة
نفسها بقصيدة قوية ذكر فيها الانتصار الذي حققه قائد المعز في مصر ، وكان
مطلع هذه القصيدة :

الا هكذا فليهد من قاد عسكريا وأورد عن رأي الامام واصدرا

وبذلك اتصل ابن هانيء لأول مرة بالمعز اتصالاً وثيقاً ، وعندئذ بدأت

حياة الشاعر تفيض رخاء وبذخاً مما بذله له المعز من اموال وهدايا . كما مدح بعض أمراء المعز . وقد اطلق الشاعر بعد هذا في مدح المعز بروائع كثيرة من الشعر ، سجل بها الكثير من حياة المعز واعماله ومفاخره . وقد خلف لنا قصائد متعددة غير ان مدحه للمعز بقي في مرتبة وحيدة من السمو والاجادة .

وانغمس الشاعر في حياة لا تخلو من اسراف مكبه منها ماله الكثير وجو الطمأنينة الذي اصبح يعيش فيه ، وقد حقق بذلك كل ما يطمح اليه الشعراء في ذلك العصر من عز وشهرة ومال . وقد عبر هو نفسه في ابيات من شعره وصف فيها حياته الجديدة واعترف بأنه قبل ان يتصل بالمعز كان يعيش في شقاء فأصبح يعيش في نعيم ، وذلك تحت ظل المعز وبفضله . وهكذا كانت قصائده في المعز تفيض حرارة وصدقاً لم يدفع الشاعر اليها عطاء المعز وكرمه فقط بل اشتراكه مع المعز في العقيدة المذهبية ، وكل هذه النواحي تذكرنا بالمتنبي وسيف الدولة اللذين كانت تجمع بينهما عقيدة مشتركة هي الحماس للعروبة كما جمعت بين المعز وشاعرنا عقيدة الحماس للمذهب الفاطمي . وكما كان المتنبي عندما يمدح سيف الدولة انما يمدح فيه خصال العظمة التي يحبها المتنبي في الامير العربي ، كان ابن هانيء عندما يمدح المعز انما يمدح فيه الخصال العظيمة التي يحبها في الملك الفاطمي .

وكان ابن هانيء يتنقل في كامل مملكة المعز ويشيد بحماها وخاصة ببلاد الزاب التي مدح فيها الامير جعفر بن علي . وهناك من يقول ان ابن هانيء لم يقف امام المعز الا بعد اتصاله بالامير جعفر والقائد جوهر ، واخيراً وصل الى المعز في القيروان فرأى لأول مرة عظمة الملك الفاطمي وجلال الدولة الفاطمية وبعد هذا اللقاء الاول انطلق شاعرنا يمدح المعز في مختلف المناسبات حتى كاد لا يمدح غيره ، وقد بلغت قصائده فيه اكثر من عشرين قصيدة كما ان قصائده هذه في المعز تكون نصف تراثه الشعري تقريباً .

كان ابن هانئ في مدائحه للمعز يتحمس للمذهب الفاطمي ويدعو المعز لغزو الامويين في الاندلس وذلك لما بقي في نفسه من حقد عليهم ، خصوصاً وان دولة المعز كانت عظيمة جداً . وكانت تركز على قوة عسكرية هائلة وخاصة الاسطول البحري الذي كان يسيطر على سواحل البحر الابيض المتوسط ويهيب الروم في جزره وعلى سواحل ايطاليا كما يهيب الامويين في شواطئ الاندلس كما كان لهم نفوذ بحري حتى في المحيط الاطلسي . وقد كان اعظم عمل عسكري قام به المعز هو احتلاله لمصر على يد قائده جوهر وتأسيسه مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ هـ ثم انتقل المعز الى مصر ، ونقل اليها قاعدة الخلافة الفاطمية سنة ٣٦٢ هـ وبذلك اصبحت للفاطميين امبراطورية عظيمة متباعدة الاطراف الى ان توفي المعز سنة ٣٦٥ هـ وكانت هذه المعظمة مصدر الهام لاشعار ابن هانئ في المعز فأحلتها المكانة الاولى لدى الخليفة الى ان توفي ابن هانئ في طريقه الى المعز في القاهرة سنة ٣٦٢ هـ وكان موته في ظروف غامضة جداً في برقة على حدود مصر الغربية ، ولا يعرف بالضبط كيف مات وان كان المؤكد انه قد قتل وهو سكران لا يستطيع حتى الدفاع عن نفسه .

لقد سجل ابن هانئ في اشعاره كل مظاهر عظمة الدولة الفاطمية لا بروح التاجر كما يفعل الشعراء المداخون وانما بروح المتحمس الخالص وهذا ما جعل الخليفة المعز يستقدمه اليه في القاهرة فلما قتل في الطريق اليه أسف الخليفة كثيراً وتألم لقتله وقال : « كنا نريد ان نساخر به اهل المشرق فلم ترد لنا الاقدار ذلك .

شعره :

ان اكثر ما اشتهر به ابن هانئ هو مدائحه للمعز وللفاطميين على العموم ، وقد سميت هذه القصائد بالمعزيات وهي لا تزيد عن العشرين قصيدة . والطابع الذي يمتاز به هذه المدائح هو الطابع المذهبي الشيعي فابن هانئ يسبغ صفات

من الاجلال والتعظيم والتقديس تتلام مع مذهب الشيعة في تصور الامام او الخليفة تصوراً قدسياً ، فهم يتزهونه عن النقائص البشرية ويرفعونه الى مستوى الكمال الإلهي تقريباً فهو في نظرهم معصوم من الخطأ ، وهو نور إلهي ، بل يعتبره بعضهم يتعالى ببعض صفات الاله ! ومن ثم كانت طاعة الناس له ليست لها حدود وهي من الواجبات المقدسة التي لا يجوز للمسلم (الشيعي) في نظرهم ان يتغلى عنها .

هذه الصفات وهذا التقديس الذي التزم به ابن هانيء في قصائده للمعز ، قد ظن به بعض الناس وخاصة نقاد الادب ومؤرخيه ان ابن هانيء يتزلف بمعانيه تلك الى الخليفة اكثر مما يجوز ، او انه قد بلغ حد الكفر في سبيل هذا التزلف . ولكن الواقع هو ان ابن هانيء لم يكن مدفوعاً بدافع التملق بقدر ما كان مدفوعاً بدافع الايمان المذهبي الفاطمي بما يصور به هذا المذهب الامام او الخليفة من صفات النزاهة والكمال المطلق ، ولهذا لم يشعر ابن هانيء بأي حرج حين مخاطب المعز بقوله :

ما شئت لا ما شئت الاقدار	فاحكم فأنت الواحد القهار
فكأنما انت النبي محمد	وكأنما أنصارك الانصار
انت الذي كانت تبشرنا به	في كتبها الاحبار والახبار
شرفت بك الآفاق، وانقسمت بك	الارزاق والآجال والاعمار

وفي قصيدة اخرى يقول :

هذا الشفيع لأمة يأتي بها	وجدوده لجدودها شفعا
هذا أمين الله بين عباده	وبلاده ، ان عدت الأمناء
هذا الذي عطفت عليه مكة	وشعائها والركن والبطحاء
هذا الأغر الأزهر المتألق	لق المتدفق المتبلج الرضاء
فعليه من شيم النبي دلالة	وعليه من نور الاله بهاء

فنعن نرى ما في هذه الابيات من تدفق هذه الأوصاف وتسلسلها وما يبدو على صاحبها من ارتياح وحماس في قولها ، كما نحس من خلال الابيات نفسها بأن قائلها مدفوع اليها بدافع نفسي عميق لا يشعر معه بأي تحرج ولا يخشى الاتهام بالتملق كما انه يحلي هذه الصفات في الخليفة الفاطمي من ناحية الاسلوب بخفة في الوزن والتعبير وعناية كبيرة في اختيار الألفاظ وسهولة في التشبيه ، وكل ذلك يجعلنا ندرك الى اي حد يرى الملتشيع للفاطميين هذه المعاني والصفات شيئاً طبيعياً في الامام بل ان ابن هانئ يتجاوز هذا الحد الى ما هو ابعد منه فينسب الى الخليفة انه سبب خلق الجنة لأن الجنة اذا لم يذهب اليها الخليفة فلن تكون اذن قد خلقت ؟ وفي هذا المعنى يقول ابن هانئ :

من يشهد القرأت فيه بفضلہ وتصدق التوراة والانجيل
فافخر لمن أنسابك الفردوس ان عدت ، ومن احسانك التنزيل
وأرى الورى لغوا وانت حقيقة ما يستوي المعلوم والمجهول

وشعر ابن هانئ في المدح لا يلفت نظرنا فيه هذا الغلو فحسب بل ينبغي ان نتفطن الى ان غلوه هذا كان صادراً عن عقيدة حقيقية ، وهذا ما جعله غلواً غير ضعيف ، واذا جاز لعلماء الدين وفقهاء السنة ان يحكموا على ابن هانئ بالكفر فان نقاد الأدب ليس من مهمتهم ان يلتفتوا الى هذه الناحية وانما من حقهم فقط ان ينظروا الى النواحي الفنية وحدها في انتاج الاديب شعراً كان أم نثراً . وعلى هذا فان من حقنا ان نحكم على هذا الشعر بما قد يبدو فيه من تكلف وصنعة وسطحية في المعاني او بما قد يبدو عليه من حرارة العاطفة وجمال الاسلوب وصدق في المعاني والخلجات ، واما النواحي الاعتقادية فانها خارجة عن نطاق البحث الادبي .

على ان هذه الناحية الفنية ليست هي وحدها الجديرة بالتقدير في شعر ابن هانئ اذ توجد ناحية اخرى مهمة من جوانبها الاخلاقية والتاريخية ، وهي نجاح

الشاعر في تصوير البطولة في الحروب والاشادة بالانتصارات العسكرية ، وكلاهما من مفاخر اجدادنا التي نعتز بها . ومن ذلك القصيدة التي مدح بها الشاعر المعز عندما اعاد فتح صقلية وقتل الملك - امانويل - واجتاح جنوب ايطاليا في اواسط القرن الرابع ، وقد استطاع شاعرنا ان يسجل كل هذه الوقائع ويذكر كثيراً من تفاصيلها بشعر لا يخلو من جمال وعظمة وفخامة تثير الاعزاز ، من ذلك قوله :

يوم عريض في الفخار طويل ما تنقضي غرر له وحجول
سل رمط مانويل وانت عذرتة في أي معركة ثوى مانويل

وقد سجل ابن هانيء على غرار هذا الاسلوب معارك العرب في المغرب مع الروم كما سجل المتنبي معارك العرب في المشرق مع الروم ايضاً . ومن مواطن الشبه بين الشاعرين كذلك ان كلا منهما كان له بمدوح توفرت فيه شروط البطولة القومية التي تجعل الشاعر يندفع في مدحه الى حد الغلو والافراط في التعظيم ، وفي كل ذلك تلمس حرارة في العاطفة جديرة بالاحترام ، كقوله للمعز مثلاً :

لي مهجة ترفض فيك تشيعاً حتى تكاد مع المدائح تهمل

ولا شك اننا نحس من خلال هذا البيت بما يرمي اليه الشاعر من تبرير مدائحه في المعز ، وذلك لانه كان يخشى ان يرميه الناس بالغلو في تقدير خصال المعز ، فكان يحاول ان يبرر موقفه ويفسر دوافعه بمثل هذا البيت او بمثل قوله :

اذا ما مدحناكم تضوع بيننا وبين القواني من مكارمكم طيب
فان أك محسوداً على مدحك فغير نكير في الزمان الاعاجيب

وامتاز ابن هانيء في تقديره للمعز الفاطمي باعتقاده ان العالم الاسلامي في

عهدہ کان مشلتاً بین ملوک وامراء ليسوا اهلاً لحكمه لان اكثرهم ليسوا عرباً ،
وهو في هذا يلتقي مع المتنبي التقاء كاملاً باستثناء الحافظ المدهي الشيعي عند ابن
هانيء وفي هذا يقول :

سوام رعا ع بين جهل وحيرة وملك مضاع بين ترك وديلم

ولهذا نجده يهدد الدولة العباسية ويحث المعز للقضاء عليها بعد ان تم له
فتح مصر :

تجهز الى بغداد قد فتحت مصر والمجز صرف الدهر ما وعد الدهر
تقول بنو العباس هل بلغ المدى فقل لبني العباس : قد قضى الامر

وكان المعز بعد ان انتقل الى مصر يريد ان يجعل من ابن هانيء صوتاً داعياً
له في المشرق ، فلما لقي الشاعر حثفه في الطريق سنة ٣٦٢ قال المعز بحسرة
واسف : « لقد كنا نرجو ان نفاخر به اهل المشرق فلم يقدر لنا ذلك » .

شخصيته :

لقد مات ابن هانيء وهو في الثانية والاربعين من عمره في طريق ذهابه الى
مصر ورغم هذا العمر القصير فان له مكانة كبيرة في تاريخ الادب العربي لا في
المغرب فقط بل وفي المشرق ايضاً .

لقد كانت حياة ابن هانيء ذاب شطرين شطر قضاء بالاندلس وهو عهد النشأة
والشباب الاول ، وكان فيه منطلقاً الى اللهو والتهتك ميالاً الى المجون والعبث ، اما
الشرط الثاني فقضاء بالمغرب في جد واتزان اجبرته عليها ظروفه الجديدة وان
كان يخلو احياناً الى بعض حياته القديمة فيرفه فيها عن نفسه . وهذه الحياة
الجديدة الرصينة التي عاشها في المغرب قد دفعه اليها شعوره الجديد بانه اصبح

يحمل رسالة سياسية ، وصارت له مكانة اجتماعية لا يحوز له معها الا ان يكون
مثلاً اعلى في الجد والخلق النبيل ، وقد صور نفسه في هذا الوضع الجديد بقوله :
اني لانف ان يميل بي الهوى او ان يراني الله حيث نهائي

المتنبي وابن هانيء

ومن خلال هذه الحياة بشطريها السابقين يمكننا ان نتصور شخصية الشاعر
بما فيها من متناقضات ، فكما ان فترة الشباب من حياته كانت تناقض فترة
الكهولة نجد في نفسه اطرافاً متباعدة ، فهو من ناحية مرهف الشعور قوي
الاحساس وهو من ناحية اخرى قوي العقل يمتاز في تفكيره وعزيمته ، وهذا
موطن آخر من مواطن شبهه بالمتنبي

كما يشبه المتنبي في كون كل منها يحمل نفساً مترفعة عن التزلف والتذلل
امام الممدوحين . والشبه بينهما موجود ايضاً في الغلو والمبالغة في وصف الممدوح
ولا نلّس ان كلا من الشاعرين كان اتصاله بملك مجاهد ، وكان هذا الاتصال يقوم
بالدرجة الاولى على مبدأ سياسي يتمثل في ذلك الملك ، فاعتزاز الشاعرين
بالممدوح كان اعتزازاً منبعثاً عن صدق وايمان وعاطفة حقيقية .

على انه ينبغي ان نذكر ان نفسية ابن هانيء كانت تختلف عن نفسية المتنبي
في شيء اساسي له تأثيره في الشخصية البشرية ، وهو ان المتنبي لم يعرف اللهو
والجهون قط في حياته بينما ابن هانيء قد اشبع نهمه من هذين وهو شاب بالاندلس
ومن مظاهر الاختلاف بين الشاعرين ايضاً : ان المتنبي قد فشل في تحقيق آماله
وطموحه في الحياة بينما لجح ابن هانيء في تحقيق ما كان يصبو اليه مع اختلاف
الاهداف عند كل منهما .

ومن الطريف ما يلاحظ ان فشل المتنبي في طموحه قد سبب له النجاح

الكامل في شعره ! وقد ملأ ذلك الفشل شعر المتنبي بروح متمردة وعواطف
عميقة ولكنها مرة وافكار قوية ولكنها قاسية احياناً ، فاذا نظرنا الى ابن
هانيء من هذه الجوانب كلها وخلال حياة الجدل التي عاشها بالمغرب نجد نفسيته
فقيرة من الالم وافكاره سطحية وطموحه محدوداً ، لهذا لم يستطع ابن هانيء
رغم ثقافته الفلسفية الواسعة ان يغوص في اعماق الافكار الفلسفية والنفسية كما
فعل المتنبي .

لقد كانت نفسية المتنبي قوية وكان طموحه بعيداً فهو يريد ان يخاصم الملوك
ويأخذ مكانهم بينما كان طموح ابن هانيء محدوداً يكفيه ان يجد ملكاً يرضي
تصوراته الشعرية وعقيدته السياسية فيمدحه بصدق .

وتم ناحية اخرى مهمة برز فيها اختلاف الشاعرين كثيراً وهي نظرة كل
منهما الى الحياة ، فبمقارنة عامة بين اشعارهما في هذا الموضوع ندرك الى اي حد
كان المتنبي عميقاً في نظركه الى الحياة بينما كان ابن هانيء سطحيّاً بسيطاً .
فنظرة ابن هانيء الى الحياة لا تختلف كثيراً عن نظرة العوام اليها ، فهو يراها :
ضحكة وبكاء ، وتلاق وفراق ، ومن هنا كان حديث شاعرنا عن الحياة عابراً
وقليلاً ، اما الحياة في نظر المتنبي فهي شيء اعمق من ذلك يشبه ان يكون مبدأ
فلسفياً كما كانت افكاره ونظركه اليها شائعة في اغلب اشعاره . وعنده ان الحياة
يلبغي ان تقام على الحذر والحيلة بكل انواعها . وعنده ان القوة هي اثن ما في
الحياة ، وان المجد والعظمة هما اسمى غايات الانسان فيها .

تقليد المتنبي :

وقد حاول ابن هانيء ان يقلد المتنبي في نظركه هذه الى الحياة وان يستوحي
بعض افكاره الفلسفية ولكنه فشل في ذلك وظهر تكلفه واضعاً في هذه
المحاولة ، من ذلك قوله :

طلب المجد من طريق السيوف شرف مؤنس لنفس الشريف
ان ذل العزيز افطع مرأى بين عييه من لقاء الختوف

وكم من فروق بين هذه المعاني وبين معاني المتنبي في قوله :

فلا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد الا السيف والفتكة البكر
وتضريب اعناق الملوك وان ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويأ كأنما تداول سمع المرء انمله العشر

فالفرق واضح بين حرارة النفس عند المتنبي وبين برودته وتصنعه عند ابن هانيء ، وهو ما نلاحظه في اكثر الأفكار او المعاني التي جاء بها ابن هانيء مقلداً او مستلهماً فيها المتنبي .

أثر الشعر الجاهلي :

ان الحديث عن المقارنة بين ابن هانيء والمتنبي يسوقنا الى ذكر جوانب اخرى من شعر ابن هانيء . فنجد مثلاً ان شاعرنا لم يحاول ان يستلهم المتنبي في معانيه الشعرية فحسب بل حاول ان يستلهمه ايضاً في المنايع التي اخذ عنها المتنبي جزالة شعره . ومن المعروف ان المتنبي كان يفضل الشعر الجاهلي كمصدر عن كل منبع آخر . وكذلك فعل ابن هانيء فقد كان مولعاً بالشعر الجاهلي كثير الحفظ له بحيث يعتبر منبعاً لأسلوبه واستلهاماته الشعرية ايضاً . ومن الغريب ان ابن هانيء قد استلهم في اشعاره من حيث الاسلوب على الاقل الشعر الجاهلي ولم يشغله عن ذلك لا عصره ولا جو الحضارة الاندلسية التي قضى شبابه فيها ، وما في هذه الحضارة من مظاهر الفن والرقعة والجمال التي كانت كلها من احسن المميزات التي طبعت الشعر الاندلسي وميزته عن الشعر في المشرق ، كما لاحظنا ذلك عند الحديث عن هذه المميزات بين الأدبين الأندلسي والمشرقي .

والواقع ان الحنين والتعلق بالشعر الجاهلي لم يكن خاصاً بابن هانيء بل كان قدراً مشتركاً بين ادباء الأندلس والمغرب عموماً ، وذلك لأنهم يرون في الشعر الجاهلي تراثاً لأجدادهم لا يمكن التخلي عنه ، وهم لا ينظرون اليه هذه النظرة فحسب - كما يفعل ذلك الأدباء المعاصرون وفي طبيعتهم الشابي - بل هم يعتبرونه المنبع الاصيل الذي يحتوي على كل عناصر الذوق العربي الاصيل وهو المثل الأعلى الذي يحتذى في الانتاج الشعري . ومن هنا كان شعر ابن هانيء على الخصوص متأثراً بالشعر الجاهلي من حيث قوة الاسلوب وخشونة الألفاظ حتى يبدو وكأنه شعر بدابة لا شعر حضارة ، وان دل هذا على شيء فإنما يدل على ان شاعرنا قد عاش في بيئته الثقافية أكثر مما عاش في بيئته الطبيعية ومحيطه الاجتماعي ويمكن القول بعبارة أدق ان ابن هانيء لم يهتم في شعره بروعة الخيال ودقة التمثيل ورقة الألفاظ بقدر ما اهتم بضخامة الألفاظ وقوة التركيب التي تؤدي احياناً الى ان يكون الكلام من النوع الوحشي وتشيع في شعره كثيراً القعقة والصدى الضخم الذي ليس وراءه كبير معنى كقوله :

أصاغت فقالت : وقع اجرد شيطم وشامت ، فقالت لمع ابيض خيذم
وما ذعرت إلا يحرس حليها ولا رمقت إلا برى في غخدم

في هذه القصيدة حاول ان يقلد معلقة عنتره تقايئاً واضحاً ، على ان هذا التقليد للشعر الجاهلي لم يكن شاملاً لكل اشعاره وإنما كان في الدرجة الاولى في مدائحه ، أما اشعاره الاخرى فرغم ما فيها من طابع شاعريته العام فانها تحتوي على بعض مميزات عصره الاندلسي المغربي من رقة في التعبير وموسيقى في اللفظ واعتماداً على المحسنات البديعية كقوله في الغزل :

وسنان من وسن الملاحه طرفه وجفونه ، سكران من خمر الصبا

خصائص شعره :

هذه اولى خصائص شعر ابن هانيء وهي محاولته تقليد الشعر الجاهلي

وخاصة في المدح وتصوير الحروب . أما الناحية الثانية من خصائص شعره فهي التكلف الذي يشعر به كل من قرأ شعره وتمعن في أسلوبه . فهو يعتمد فيه على الجهد والصنعة الفنية أكثر مما يعتمد على الموهبة الشعرية والسليقة الطبيعية ولهذا يمكن اعتبار ابن هانيء من بين الشعراء الذين يجهدون أنفسهم في نظم الشعر ويتعملون في ذلك مشقة وضيق كبيرين ، ولعل هذا التصنع هو الذي سبب الفشل في بعض أشعار ابن هانيء وان كان التعب والجهد في عمل الشعر لا يعد تصنعاً الا اذا كان فاشلاً ، لأننا نجد شعراء بذلوا هم بدورهم جهوداً وعناية شاقة في نظم أشعارهم ومع ذلك جاءت أشعارهم في غاية من الروعة والكمال ويمكن ان نعتبر من بين هؤلاء أبا العلاء المعري وأبا تمام وزهيراً ، الذين عنوا بشعرهم عناية كبيرة وقل ان كان الفشل من نصيبهم .

أما ابن هانيء فان الفشل يصاحبه في كثير من الاحيان ولا نقول في اكثر الاحيان لذلك نجده يميل الى الاطناب والتكرار واعادة معانيه بألفاظ متنوعة واكساء المعنى البسيط بألفاظ وتراكيب ضخمة ، وهذا ما بغضه الى المعري فكان يقول عنه « شعره كالرحى تطحن نفسها » أي ان فيه كثرة ألفاظ تدور حول نفسها ولا تلد معنى جميلاً .

وفي هذا يختلف ابن هانيء اختلافاً واضحاً عن المتنبي ، فان الشاعر السوري كان الى ذلك قوي المعنى قوي الروح عميق الفكرة .

وقد حاول ابن هانيء ان يستمد من المتنبي هذه القوة المعنوية في شعره ولكنه لم يصل اليها وبقي متدلياً في الألفاظ في أغلب ميادين الشعر ما عدا الغزل الذي كان المتنبي فيه قليل الحظ جاني الطبع بينما كان ابن هانيء مولعاً بالنساء أكثر من المتنبي وكان اعرف منه بموطن جماهن .

أما الموطن البارز الذي يظهر فيه تفوق المتنبي عن ابن هانيء فهو موطن الحكمة والحكمة شائعة في شعر ابن هانيء وتعد من خصائص هذا الشعر التي تمثل

طابعه العام ، ولكنها لم تصل الى مستوى الحكمة عند المتنبي .. وابن هانيء معذور في ذلك لأنه ليس هو الوحيد الذي فشل في ادراك مستوى المتنبي في الحكمة ، اذ أن المتنبي وحده في الشعر العربي .

آراء النقاد :

ونختم هذه الدراسة عن ابن هانيء بآراء النقاد فيه : فنجدهم مجمعين على الاعتراف بأنه من شعراء الطليعة الاولى في العربية ، ويختلفون في النواحي التي جعلت كل واحد منهم يضعه في هذه المنزلة فالمعري يؤاخذ على فراغ معانيه ولكنه يعترف بأنه مع ذلك من الشعراء المجيدين ، وابن خلكان يضعه في الطبقة الاولى من شعراء المغرب . ويقول انه أشعرهم على الاطلاق ، وان كان يؤاخذ على افراطه في المدح ، ويعتبره ابن شرف من اعلام الشعراء ، اما ابن رشيق فقد حلل ناحية القوة وناحية الضعف عند ابن هانيء تحليلاً مضيئاً وقال : « انه يبر بالفاظه اكثر مما يبر بمعانيه » .

أما في نظرنا نحن في هذا العصر فان مقاييس الأدب قد تغيرت عندنا بالنسبة لما كانت عليه عند النقاد الأقدمين واصبحنا لا نعجب كثيراً بمزايا ابن هانيء التي كان يقدرها القدماء وهي التفنن في محسنات البديع والاعراب في اللغة والالتجاء الى التطويل في الكلام ، بل ان هذه الامور كلها اصبحت عندنا اليوم تعد من النقائص في الفن . فنحن نحسب الشعر المليء بالمعاني المقتصد في الالفاظ البسيط في المحسنات المقصودة ، والذي لا يخلو مع ذلك من رنة موسيقية ومن خفة في الجرس ، لذلك لا نستطيع ان نضع ابن هانيء في درجة ابن الرومي لأن هذا الاخير اعتمق منه فكرة وأغزر تصوراً . ولا نستطيع ان نضعه في مرتبة المتنبي ؛ لأن هذا الاخير اكثر منه حرارة واقوى في المعنى ، ولا نستطيع ان نضعه في مرتبة البحتري ، لأن هذا الاخير اسهل منه طبعاً واجرى في القريحة .

ومع هذا فلسنا نقصد ان نضع ابن هانيء في المرتبة الدنيا من الشعراء
لأننا نجد عنده مزايا اخرى جليلة وهي : اولاً - ان شعره سجل حافل لتاريخ
البطولة الاسلامية العربية في المغرب ، وثانياً - ان ابن هانيء كان في مستوى
من امتلاك اللغة والتصرف فيها مكنه من تسجيل هذه الحقبة من تاريخنا الحافل
تسجيلاً حياً، وان يصور اساطيل الفاطميين وحياتهم الضخمة وسلطانهم العظيم،
كذلك سجل ابن هانيء حسنة اخلاقية وهي انه لم يتذلل في شعره رغم مدحه
وغلوه فيه وانما بقي محتفظاً بكرامته ورجولته .

وعندما نعيب ابن هانيء بنقص فني في شعره حسب مقاييسنا اليوم يلبغني
ان لا ننسى انه كان بالنسبة لعصره يمثل مستوى راقياً جداً في الفن الشعري
وكانوا يعتبرونه بحق اعظم شعراء المغرب ومن اعظم شعراء العربية .



ابن رشيق

(٣٨٥ - ٤٥٦ هـ = ٩٩٥ - ١٠٦٣ م)

حياته :

من المشهور عن ابن رشيق انه قيرواني كما يدل على ذلك لقبه ، ولكن
لاستاذ .ح.ح. عبدالوهاب ، يقول انه فحص وبحث طويلا في حياة هذا الكاتب
المغربي الكبير ، فبين له امران شاع عكسها عند المتعدين عن ابن رشيق :

اولا - ان ابن رشيق ليس من اصل رومي ، وليس ابن مملوك كما شاع عنه
في كتب تاريخ الادب ، وانما المرجح انه من اصل عربي لان اسم رشيق هو اسم
عربي محض كان شائعا في القبائل العربية التي انتشرت في انحاء المغرب .

ثانيا - ان مولده لم يكن بالمهدية ولا بالقيروان كما توهم كثير من مؤرخي
الادب بل ولد ونشأ وتعلم في مدينة « المسيلة » التي كانت تسمى اذ ذاك
« بالمحمدية » نسبة الى محمد بن المهدي العبيدي الذي اسسها بالجزائر سنة ٣١٥ هـ .

وعندما بلغ العشرين من عمره واكمل ثقافته الاولى ، رحل الى القيروان
لاتمام ثقافته العالية ، وكانت القيروان يومئذ تحتل مكانة عظيمة في الازدهار

الثقافي بل كانت بالنسبة للمغرب بمثابة بغداد في المشرق .

ووجد ابو علي الحسن بن رشيق الازدى في مدينة القيروان من مناهل الادب والعلم ما اشبع نهمه وغذى ذكاه المفرط ، وقد تحدث ابن رشيق عن شيوخه الذين تتلمذ عليهم وتأثر بهم ، ومنهم عبد الكريم النهشلي في الادب والنقد ، وابو عبد الله الحشني الضرير في اللغة والادب ، وكان ابن رشيق معجباً به اشد الاعجاب اذ قال عنه : « كان مشهوراً بالنحو واللغة جداً ، مفتقراً اليه فيها ، بصيراً بغيرهما ، ولم يرقط ضرير اطيب منه نفساً ، ولا اكثر منه حياء مع دين وعفة . ادركته وقد جاوز التسعين والتلاميذ يكلونهم فيحمر نخجلاً ، ولا غنى لاحد من الشعراء الخذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه » .

ولم يلبث ابن رشيق ان جلب الانظار اليه ، لصواب ملاحظاته ، وعلامات ذكائه الشديد ، وحزمه في طلب العلم فسمع به المعز بن باديس فطلبه فكان ابن رشيق من احسن من عرفهم المعز من رجالات العلم في عصره ، وكان لابد ان يحاط ابن رشيق - شأن كل عبقرى في بلاط الملوك - بأجواء من الحسد والفساد ، ولكن ابن رشيق استطاع ان يتلافى الاصطدام بحساده ، لما اظهره من وفاء واخلاق رفيعة نحو المعز ، حتى ان المعز لما انتقل الى المهدي بعد خراب القيروان اصطحب الشاعر معه ، وبذلك كان ابن رشيق صاحب اول مكانة عند المعز .

ولما توفي المعز سنة ٤٥٣ بقي ابن رشيق في خدمة ابنه تميم ، غير ان الاحوال في عهد هذا الامير ، لم تلبث ان ساءت جداً ، ولم يعد ابن رشيق يطيق البقاء في ظل دولة تداعت الى الانهيار . فهاجر الى جزيرة صقلية ولكنه وجد امامه ابن شرف ، وكانت العلاقات بينهما يسودها التوتر ولكن عند التقائهما في دار الغربية نسيا احنهما وحن كل منهما للآخر ، غير ان ابن شرف لم يستطع الاقامة في صقلية وقرر الرحيل الى الاندلس وعرض على صاحبه ان يترافقا في الرحيل

اليها ، فرفض ابن رشيق لما كان يسمعه عن انهيار الدولة في الاندلس وانقسامها الى ملوك وطوائف وما ادى اليه من سوء في الحالة السياسية ، فقال في ذلك بيتية المشهورين وهما :

بما يزهدني في ارض اندلس
سماع معتضد فيها ومعتد
القاب سلطنة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

وبقي في الجزيرة الى ان توفي سنة ٤٥٦ بعد ان اقام بها ثلاث سنوات قضى معظمها في مدينة « مآزر » وبها توفي ، وكان في حوالي السبعين عاماً .

شخصيته :

كان ابن رشيق من الناحية الخلقية نبيل العاطفة فاضل النفس طاهر الضمير . وقد اشتهر بوفائه وبعاطفته الوطنية ، وذلك يظهر في حالة الحزن التي لازمته بعد خراب القيروان ، وبقيت معه الى آخر حياته . وزاد من شعوره بالآلم ما آل اليه امر العرب في اواخر ايامه من تفكك في الداخل وضعف نفوذهم في البحر المتوسط ، فقال في ذلك :

لا تعجبين لراسي كيف شاب امسى . واعجب لاسود عيني كيف لم يشب
البحر للروم لا يجري السفين به . الا على غرر ، والسر للعرب

وكان يتألم لحالة الادباء في عصره ، ويرى ان مجتمعه لم ينصفهم حقهم ، وفي هذا يقول :

اشفى لعقلك ان تكون اديبا . او ان يرى فيك الورى تهديبا
ما دمت مستويا ففعلك كله . عوج ، وان اخطأت ، كنت مصيبا

والى جانب هذه الاخلاق العالية التي تحملها ابن رشيق ، كان ذا شخصية ثقافية من الطراز الاول ، جديرة بان توضع الى صف الخالدين من الادباء العرب امثال الجاحظ والمتنبي وابي العلاء وابن خلدون .

كان مثالا قويا للادب بأوسع معانيه . متضلعا في جميع مواد الادب من لغة راسخة وذوق رفيع ، ونقد دقيق وحكي نزيه . وهذا ما جعل ابن خلدون يقول عن كتابه العمدة : « هو كتاب انفرد بهذه الضاعة (النقد) واعطاها حقها ولم يكتب فيها احد قبله ولا بعده مثله » . وقال عن مكانته الشعرية « انه أشهر شعراء عصره » .

مؤلفاته :

ترك ابن رشيق ثروة عظيمة من الكتب في مختلف فنون الادب ، وهي اللغة ، والنقد ، والتراجم لمشاهير الادباء . والى جانب هذا الادب الموضوعي ترك ابن رشيق ثروة من الادب الانشائي تتمثل في اشعاره ورسائله الادبية .

ومن كتبه نذكر « قراصة الذهب في نقد اشعار العرب » وقد اعتنى فيه بالخصوص بسرقات الشعراء ، وكتاب « النموذج » وكتاب « الشذور » وهما في اللغة ، وكتاب « النموذج الزمان في شعراء القيروان » ، وهو كتاب يبدو ان له قيمة ادبية خاصة ، لان عددا كبيرا من مؤلفي كتب الادب القدماء قد اقتبسوا منه واثاروا اليه ولكنه مفقود ، وبما يؤسف له ان هذا الكتاب من الكتب النادرة التي احتوت على تاريخ الادب واعلامه في المغرب .

وله عدة كتب اخرى وفي مقدمتها كتاب « العمدة » وكتاب « قراصة الشعر .. » وهما الكتابان الوحيدان اللذان طبعا ، وقد انفرد كتابه « العمدة » بالشهرة والانتشار وقامت عليه مكانة ابن رشيق نفسه ، لما له من قيمة ممتازة

بين سائر الكتب التي الفت بالعربية في النقد الادبي ولذلك سنفرد لهذا الكتاب بحثاً خاصاً .

العمدة :

يقع هذا الكتاب في جزئين ، وابوابه تستوعب البحث في كل القضايا المتعلقة بالادب كمنزلة النثر والشعر والدفاع عن الشعر واثره في حياة العرب وفي حياة الشعراء ، وذكر مشاهير الشعراء ومن برز منهم في ناحية من نواحيه ، وكتعريف الشعر وانواعه واختلاف المذاهب الجمالية فيه ومشكلة الصنعة والطبع وما ورد فيها من اقوال ، وكقيمة الاوزان والقوافي ووجوه الصواب والخطأ فيها ، واختلاف طباع الشعراء في طلب الشعر وتخيرات اوقات استلهامه ، وبحث القضايا البلاغية من ايجاز واطناب وبديع واستعارة الى آخره ... وكمسائل اخرى في منتهى الطرافة ، كالفرق بين المبالغة والغلو والايغال في معاني الشعر ، وبحث الحشو وفضول الكلام والركيك والمستضعف وكالبحث في متى يحسن التكرار ومتى يستهجن . وكبحوثه الطريفة فسيا يحمل من صياغة حسب الموضوع بحيث يجب ان تختلف لغة الشاعر من الغزل الى المدح مثلاً . وكبعثه في المعاني المستحدثة وفيما تفرد به القدماء الى آخره .

وهو في كل مسألة يكثر من الاستشهاد الى جانب التحليل ويأتي بالأمثلة الى جانب الاحكام ويذكر آراء غيره في كل مشكلة ويذكر رأيه الخاص تاركاً للقارئ مجالات واسعة للتأمل والنظر . ومن ذلك قوله في باب الايغال : « ومن أسمائه ايضاً الاغراق والافراط » ومن الناس من يرى ان فضيلة الشاعر انما هي في معرفته بوجوه الاغراق والغلو ، ولا أرى ذلك الا محالاً لخالفته الحقيقة وحروجه عن الواجب والمتعارف ؛ وقد قال الخذاق : خير الكلام الحقائق فان لم تكن لها قاربها وناسبها ، واحسن الشعر ما قارب فيه القائل اذا شبه ، واحسن

منه ما أصاب الحقيقة فيه ... ، ثم علق ابن رشيق على هذا الرأي بقوله :
« وأصح الكلام عندي ما قام عليه الدليل »^(١) .

ومن طرائف النقد عند ابن رشيق في كتاب « العمدة » تتبعه لألفاظ معينة
تكثر عند هذا الشاعر أو ذاك ، ومن هذا القبيل قوله في باب « الحشو وفضول
الكلام » :

« ومما يكثر به حشو الكلام : أضحى ، وبات ، وظل ، وغدا ، وقد ،
ويوماً ، واشباهها . وكان أبو تمام كثيراً ما يأتي بها . ويكره الشاعر استعمال
ذا وذي ، والذي وهو وهذا وهذي ، وكان أبو الطيب مولعاً بها مكشراً منها
في شعره حتى حمله حبه فيها على استعمال الشاذ وركوب الضرورة »^(٢) .

وإذا كان التكرار مبعوضاً عند الناس بصفة لا تفصيل فيها ، فإن ابن رشيق
يضع للتكرار قواعد وأصولاً يحسن بمقتضاها أحياناً ويستبعد أحياناً أخرى ،
وفي هذا يقول ابن رشيق :

« وللتكرار مواضع يحسن فيها ، ومواضع يقبح فيها ؛ فأكثر ما يقع
التكرار في الألفاظ دون المعاني ، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل ، فإذا تكرر
اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينه . فلا يجوز للشاعر مثلاً أن يكرر اسماً
الأعلى جهة التشويق والاستعذاب إذا كانت في تغزل أو نسيب كقول قيس
ابن ذريح :

ألا ليت لبنى لم تكن لي خلة ولم تلقني لبنى ولم أدر ما هيا ؟

أو كهول أبي الأسد في المدح :

مواقع جود الفيض في كل بلدة مواقع ماء المزن في البلد القفر

(١) العمدة ج ٢ ص ٥٧ — ٥٨ .

(٢) العمدة ج ٢ ص ٦٧ .

او كقول الخنساء :

وان صخرأ لمولانا وسيدنا وان صخرأ اذا نشتو لنحار
وان صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار^(١) ،

ويظهر من هذه الاستشهادات ونحوها ان ابن رشيقي يعتمد على ذوق رفيع في بناء اصول النقد ، ولكنه يعتمد ايضاً على قواعد وقوانين ، يعسر ضبطها لتداخل الذوق الشخصي فيها مع القواعد الموضوعية ، غير اننا مع ذلك يمكن ان نجد حدوداً وقواعد عامة قام عليها ما يمكن ان نسميه : « اصول النقد عند ابي رشيقي » وهي :

اولاً - التحليل : فابن رشيقي قبل ان يلتقد القطعة او يقرظها يحاول ان يحللها ، وهي صفة لم تكن موجودة في النقد العربي القديم الذي كان يبادر باعطاء الحكم بالجودة او الرداءة قبل تحليل النص الذي يحكم فيه . وتبدو فائدة التحليل في ان الناقد يوضح بتحليله جوانب الجمال او النقص والخطأ او الصواب في النص الذي ينقده ، مما يساعد القارئ على تكوين ملكة شخصية في الحكم لا يبقى فيها عالة على الناقد ، كما يكون النقد بواسطة التحليل اقرب الى النزاهة والصواب منه الى التحيز والخطأ . وفي الامثلة التي أوردناها سابقاً ما يساعد على ايضاح هذه الطريقة التحليلية التي سار عليها ابن رشيقي في نقده .

ثانياً - الاكثار من الشواهد وتنويعها ، ما يزيد الحقائق جلاء ووضوحاً ، ويدعم الاحكام التي يصدرها الناقد حتى تكون صالحة لأن تطبق على ما شابهها من الامثلة او الموضوعات .

ثالثاً - ذكر احكام النقاد الآخرين ، وفي هذا المبدأ من النقد عند ابن رشيقي

(١) العمدة ج ٢ ص ٧٠ - ٧١ .

ما يدل على سعة الاطلاع من ناحية ، ويمكن القارىء من ناحية اخرى من الاطلاع على آراء مختلفة يكون له فيها مجال الخيار واسعاً ، ويدلنا حرص ابن رشيق في ذكر آراء النقاد الآخرين على تشبعه بالنزاهة العقلية التي هي اصل من اصول النقد الحديث ، وقد طبق هذا المبدأ على كل موضوعات كتابه .

رابعاً - المقارنة : وهي عند ابن رشيق عنصر اساسي يقوم عليه النقد والمفاضلة في المعاني والافكار وفي الاسلوب والعبارة مما يزيد عناصر الجمال والصواب وضوحاً وبروزاً في ذهن القارىء .

ومن أمثلة المقارنة بين الشعراء وذكر احكام النقاد الآخرين مع ذكر احكامه هو ، قوله :

« ومن الشعراء من لا يجيد الابتداء ولا يتكلف له ثم يجيد باقي القصيد واكثرهم فعلاً لذلك البعدي ، كان يضع الابتداء سهلاً ويأتي به عفواً ، وكلما تمادى قوي كلامه ، وله من جيد الابتداءات كثير لكثرة شعره ، والغالب عليه ما قدمت . غير ان القاضي الجرجاني فضله بجودة الاستهلال - وهو الابتداء - على ابي تمام وابي الطيب ، وفضلها عليه بالخروج والخاتمة ، ولست أرى لذلك وجهاً الا كثرة شعره كما قدمت .

... فأما الخاتمي فانه يغض من ابي عبادة غصاً شديداً ويجور عليه جوراً بيناً لا يقبل منه ولا يسلم اليه ^(١) .

ثم يدعم ابن رشيق حكمه بأمثلة متعددة من مطالع شعر ابي تمام فيقول :

« .. وكان ابو تمام فخم الابتداء له روعة وعليه ابهة كقوله :

الحق ابلج والسيوف عوار فحذار من اسد العرين حذار

(١) العمدة ج ١ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

وقوله :

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

خامساً : الذوق الشخصي ، ويظهر هذا الاصل في نقد ابن رشيق ظهوراً بارزاً ، في اختياره للنصوص وفي مقارنته بينها ، ولكنه يظهر اكثر من ذلك في اسلوب التحليل الذي يعتمد عليه ابن رشيق في اظهار جوانب الكمال او النقص في النص سواء من ناحية اللفظ او المعنى .

والذوق الشخصي عند النقاد الادبي امر لا بد منه ، سواء في ذلك النقد الادبي القديم او الحديث ، وكل ما يوجد من فرق بين القديم والحديث ان النقد الادبي عند العرب كان يعتمد على الذوق الشخصي وحده . بينما يعتبره النقد الحديث اصلاً من عدة اصول اخرى يقوم عليها النقد ، وهي التي ذكرنا بعض ما يوجد منها عند ابن رشيق .

وخلاصة القول فان كتاب العمدة يعد اهم ما بلغنا من تأليف ابن رشيق الادبية ، وكذلك يعتبر اهم كتاب في النقد وضعه النقاد العرب القدماء ، لما بلغه المؤلف في هذا الكتاب من كمال في البحث ودقة في عرض الحجج وترتيب الأدلة ، واستخراج الافكار وتقرير الابواب والحكم على الجيد والرديء من الادب ، والتفنن في التحليل .

وزيادة على ذلك فان في كتاب العمدة ابواباً اخرى لا تقتصر على الشعر ، بل يتطرق فيها الكاتب بأصول نقده الصائب الى انواع النثر كالخطابة والرسالة والتأليف الخ ...

واخيراً لكي تظهر لنا شخصية ابن رشيق الجبارة في هذا الكتاب ، نختم بحثنا عنه بوصية قدمها للشعراء خاصة والأدباء بوجه عام ، قال فيها بعد ان ذكر ما للمحدثين من معان مبتكرة اعترف لهم فيها بفضلهم على من تقدمهم ، ثم قال :

« هذا على اتي ذممت الى المحدثين انفسهم في أماكن في هذا الكتاب، وكشفت لهم عوارهم ، ونعيت لهم اشعارهم . وليس هذا جهلاً بالحق ، ولا ميلاً الى ثنيات الطرق ، ولكن غصاً من الجاهل المتعاطي والمتعامل الجاني ، الذي اذا اعطي حقه تعاطى فوقه وادعى على الناس الحسد ، وقال : انا ولا احد ! والى كم أعيش لكم ، واي علم بين جنبي لو وجدت مستودعاً . فاذا عرض في شعره بسؤال عن معنى فاسد ومتهم ، او طولب بحجة في لحنه او شاذ ، او فوظر في كلمة من ألفاظ العرب مصحفة او نادرة ، قال : هكذا اعرف !.. وكأنا اعطي جوامع الكلم . حاشا لله واستغفر . بل هو العمى الاكبر والموت الأصفر » .



ابن شرف

(٣٩٠ - ٤٦٠ هـ = ٩٩٩ - ١٠٦٧ م)

حياته :

يعد ابن شرف من وجوه الادب الزاهية في القرون في القرن الخامس، فقد تلقى العلم عن اساتذة كبار كأبي الحسن القاسمي ، و ابراهيم الحصري ، ومحمد القزاز . ثم الحق بديوان المعز بن باديس ، حيث التقى بابن رشيق فتعرف به كما تعرف بعدد آخر من الكتاب والشعراء .

وفي هذا الجو تنافس الشعراء والكتاب في الاقتاج ، يشجعهم المعز بمعطايه الكثيرة، ولكن المنافسة بين ابن شرف وابن رشيق كانت ابرز واشد استفحالا حتى ادت بهما الى المهاجة والخصومة . وكان المعز نفسه - على ما يظهر - يرغب في اثاره اسباب المنافسة بينها في مجالسه الادبية ، ويقوم هو بدور الحكم احيانا في المفاضلة بينها .

وظلت حياة ابن شرف في هذا الجو الادبي الخصب ، لا يعكرها الا بعض متاعب المنافسة البريئة ، حتى هجم الهلايون على القرون ، فقصوا على مظاهر

النشاط والحضارة في القيروان ، ففر ابن شرف كما فر ابن رشيق ومن نجما من علماءها وأدبائها وفر المعز نفسه ، ولجأ الى المهدي . وقد سبق ان تحدثنا عن صدى خراب القيروان في شعر شعرائها ومنهم ابن رشيق ، ولابن شرف في هذه الحادثة قصيدة تعد من جيد الشعر ، منها قوله :

...اطفالها ما سمعت بالفلا	قط فعاتت في الفلا دارها
ولا رأت ابصارها شاطئا	ثم جلّت باللج ابصارها
وكانت الاستار آفاقها	فعاتت الآفاق استارها
ولم تكن تلحظها مقلة	لو كحلت بالشمس اشغارها
فأصبحت لا تنتهي لحظة	الا بأن تجمع اطمارها...

وظل ابن شرف مع المعز في المهدي مدة ثم ارتحل الى صقلية ، ثم توغل في الرحلة الى الاندلس . وقد رأينا في الحديث عن ابن رشيق انه رفض الذهاب مع زميله ابن شرف ، زاهداً في ارض الاندلس لما فيها من القاب يحكي اصحابها انتفاخ الاسد . اما ابن شرف فكانت له فلسفة اخرى في الحياة ، يقول عنها :

ان ترمك الغربية في معشر	قد جبل الطبع على بغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم	وارضهم ما دمت في ارضهم

وهي فلسفة لا يقرها ابن رشيق ولا يوافق عليها زميله في شيء .

وانتقل ابن شرف بين ملوك الطوائف بالاندلس يمدحهم ويداريهم ويرضيهم كما قال ، حتى سنة ٤٦٠ حيث توفي في مدينة اشبيلية الشهيرة .

مؤلفاته :

ترك ابن شرف مؤلفات كثيرة لم يصلنا منها الا القليل ، ومنها :

١ - كتاب « ابحار الافكار » ويحتوي على انتاجه الخاص من نثر ونظم ، وهو مفقود ، ولكن توجد فقرات منه مشتتة في بعض كتب الادب .

٢ - كتاب « اعلام الكلام » وهو كتاب جمع فيه طرائف من الادب وهو مفقود ايضاً .

٣ - « رسائل الانتقاد » وهو كتاب نشره الاستاذ .ح.ح. عبد الوهاب في دمشق سنة ١٩١١ ، واختار هذه الرسائل الاستاذ محمد كرد علي ، ونشرها ضمن كتابه « رسائل البلغاء » .

وهذا الكتاب كما قال عنه ابن شرف « هو احاديث مختلفة الالوان ، فيها اخبار فصيححات الكلام ، يروق الصغير معناها والكبير مغزاها » .

وهي عبارة عن مقامتين كتبتا بأسلوب السجع المعروف في المقامات واتخذ لها الكاتب شخصاً خيالياً دعاه : ابا الريان الصلت بن السكن من بلد سلامان : وقد تحدث الكاتب فيها على لسان بطله عن مشاهير الشعراء القدامى فانتقد بعضهم بأسلوب خفيف مع ذكر حسناتهم والاشادة بها ولكنه استعمل ايضاً لهجة فيها عنف وقساوة في النقد .

ومن آرائه في بعضهم قوله :

« واما ابن الرومي فشجرة الاختراع وثمره الابتداع ، وله في الهجاء ، ما ليس له من الاطراء . فتح فيه ابواباً ووصل منه اسباباً ، وخلع منه اثواباً ، وطوق فيه رقاباً . يطول عليها حسابه ، ويمحق بها ثوابه . واقد كان واسع العطن لطيف الفطن . الا ان الغالب عليه ضعف المريرة ، وقوة المرة » .

ومن قوله في المتنبي :

« واما المتنبي فقد شغلت به الالسن ، وسهرت في اشعاره العيون الاعين .

وكثر الناسخ لشعره ، والاخذ لذكره ، والغائص في بحره ، والمفتش في قعره ،
عن جماله ودره . وقد طال فيه الخلف ، وكثر عنه الكشف . وله شيعه تغلوفي
مدحه وعليه خوارج تتعاون في جرحه . والذي اقول : ان له حسنات وسيئات
وحسناته اكثر عدداً ، واغرائب طائفة ، وامثاله نائرة . وعلمه
فسيح ، وميزه صحيح ، يروم فيقدر ، ويدري ما يورد ويصدر .

وبما قاله عن بعض شعراء المغرب رأيه في ابن هانيء الذي قال عنه :

« واما ابن هانيء الاندلسي ولادة ، القيرواني وفادة وافادة ، فرعدي
الكلام بردي النظام ، متين المباني ، غير متين المعاني ، يحفو بعطفها عن الاوهام ،
حق يكون كنقطة النظام ، الا له اذا ظهرت معانيه في جزالة مبانیه ، رمى
عن منجنيق ، يؤثر في النيق ، وله غزل فقري ، لا عذري ، لا يقنع فيه بالطيف
ولا يشفع فيه بغير السيف . وقد لوه به ملك الزاب ^(١) وعظم شأنه باجزل
الثواب ، وكان سيف دولته ، في اعلاء منزلته ، من رجل يستعين على صلاح
دنياه ، بفساد اخراه ، لرداءة عقله ورقصة دينه ، وضعف يقينه . ولو عقل لم
تضق عليه معاني الشعر ، حق يستعين عليها بالكفر ، ^(٢) .

وهكذا يتبين لنا من احكام ابن شرف الادبية ونقده للشعراء ، انه رغم
الجهد الذي يبذله في اعطاء احكام صحيحة عن منازل الشعراء وقيمة ادبهم الا
انه يضيع في انتقاء التعابير اللغوية ، ويغفل عن التدقيق في الافكار التي يقسم
عليها احكامه ، كما فعل زميله ابن رشيق في العمدة ، كذلك لا نستطيع ان
نجد وجهاً من وجوه الارتباط او العلاقة بين الكمال الذي بلغه ابن رشيق في
نقده الادبي والذي بينا اصوله وقواعده اثناء الحديث عنه ، وبين الاحكام

(١) هو المعز لدين الله الفاطمي .

(٢) رسائل الانتقاد ص ٢٢ .

العامة الخالية من الضبط والتحليل والضائع صوابها القليل في امواج من السجع الركيك والالفاظ الغريبة .

ومع هذا فيلبنني ان لا نغبط ابن شرف حقه في الشعر ، اذ هو يعد من الشعرا المجيدين في المغرب بسلاسة معانيه وقوة تركيبه ، ودقة وصفه ووضوح افكاره .

وقد مر بنا مقطع من قصيدته التي رثا بها القيروان سنة ١٤٩١ ونذكر هنا نتفا من شعره الجيد ، فمن قوله في الغزل :

ولقد نعمت بليلة جمد الحيا بالارض فيها والسماء تذوب
والكاس كاسية القميص كأنها - لونا وقدرأ معصم مخضوب
هي وردة في خده وبكأسها تحف القناني عسجد مصبوب
مني اليه ومن يديه الى يسدي فالشمس تطلع بيننا وتغيب

ومن قوله عن ذكرياته بالقيروان وشوقه الى حياته الماضية فيها :

يا قيروان ! وددت اني طائر
فأراك رؤية باحث متأمل
يا لو شهدتك اذا رأيتك في الكرى
كيف رجاء صباي بعد تكهل
لا مكثرة الاحسان قلبي حسرتي
مبهات تذهب حلقي بتعلل

القديم والحديث :

ولابن شرف كما لغيره من الادباء والنقاد المعاصرين له والمتقدمين عنه ، كابن رشيق والحصري ، وكالجاحظ وابن قتيبة ، رأي في مشكلة القديم والحديث في الشعر ومشكلة اللفظ والمعنى ، يقول فيه :

... اول مسا عليه تعتمد واياه تعتقد ، انت لا تستعجل باستحسان ولا باستقباح ، ولا باستبراد ولا باستملاح ، حتى تنعم النظر ، وتستخدم الفكر ، واعلم ان المعجالة في كل شيء موطىء زلوق ، ومركب زهوق ، فان من الشعراء ما يملأ لفظه المسامع ، ويرد على السامع منه قعاقع . فلا يدعك شماخة مبناه ، وانظر الى ما في سكناه من معناه . فان كان في البيت ساكن ، فتلك المحاسن ، وان كان خالياً فأعدده جسماً بالياً . وكذلك اذا سمعت الفاظاً مستعملة وكلمات مبتذلة ، فلا تعجل باستضعافها ، حتى ترى ما في اضعافها . فكم من معنى عجيب في لفظ غريب . والمعاني هي الارواح ، والالفاظ هي الاشباح ، فان حسنا فذلك الحظ المدوح ، وان قبح احدهما فلا يكن الروح .

قال : وتحفظ عن شيئين احدهما : ان يحملك اجلال القديم المذكور على المعجلة باستحسان ما تستمع له ، والثاني : ان يحملك اصغارك المعاصر المشهود على التهاون بما انشئت له ، فان ذلك جور في الاحكام وظلم من الحكام ، حتى تمحص قولها ، فحينئذ تحكم لها او عليها . وهذا باب في اغتلاقه استصعاب ، وفي صرف العمامة وبعض الخاصة عنه اتعاب . وقد وصف تعالى في كتابه الصادق تشبث القلوب بسيرة القديم ونفارها من المحدث الجديد ، فقال حاكياً لقولهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة » وقال : « لن نعبد إلا ما وجدنا عليه آباءنا » .

وقد قلت انت :

أغري الناس بامتداح القديم	وبذم الجديد غير الذم
ليس إلا لأنهم حسدوا الحي	فرقوا على العظام الرميم

وقلت في هذا المعنى :

قل لمن لا يرى المعاصر شيئاً	ويرى للأوائل التقديماً
ان ذاك القديم كان جديداً	وسيفقد هذا الجديد قديماً

فلا يرعك ان تجري على منهاج الحق في جميع الخلق ، فبه قامت السموات والارض ، وبه احكم الابرام والنقض ، ^(١) .

وابو عبدالله محمد بن شرف لم يأت يجديد في هذا الموضوع ، وانما هو يوافق فيه غيره من نقاد الأدب في عصره وحتى من سبقه ، فقد قال ابن رشيق في هذا المعنى :

« كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالاضافة الى من كان قبله ... »
وقال ايضاً :

« وانما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ، ابتداءً هذا بنساء فأحكمه واتقنه ، ثم اتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن ، .

ولابن قتيبة ايضاً رأي اكثر دقة ووجاهة ، حيث قال :

« ... لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص قوماً دون قوم ، بل جعل الله ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ... » ^(٢)

(١) رسائل الانتقاد ص ٢٣ - ٢٤

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ٧

المراجع

- ١ - ابن رشيق : العمدة القاهرة - ١٩٣٤
- ٢ - ابن شرف : رسائل الانتقاد تحقيق وشرح ج. ح. عبد الوهاب دمشق - ١٩١١
- ٣ - ابن زيدون : ديوان شعر الطبعة الاولى - القاهرة ١٩٣٢
- ٤ - ابن قتيبة : الشعر والشعراء القاهرة - ١٣٦٩ هـ
- ٥ - ابن عبد ربه : العقد الفريد طبعة احمد امين - ١٩٤٨
- ٦ - أطلس التاريخ الاسلامي تأليف هاري. و. هازارد ترجمة ابراهيم زكي خورشيد القاهرة - بلا تاريخ
- ٧ - امين : الدكتور احمد أ - ضحى الاسلام ب - ظمير الاسلام
- ٨ - البستاني : بطرس أدباء العرب ط ٥ - القاهرة ١٩٥٢ ط ٣ - القاهرة ١٩٥٥ ط ٤ بيروت : ١٩٥١
- ٩ - بعيو : مصطفى عبد الله أ - المجلد في تاريخ لوبيا - الاسكندرية ١٩٤٧ ب - دراسات في التاريخ اللوبي - الاسكندرية ١٩٥٣
- ١٠ - بيهم : محمد جميل قوافل العروبة ومواكبها بيروت : ١٩٤٨
- ١١ - ج. دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريده ط ٣ - القاهرة ١٩٥٤

- ١٢ - حسن : الدكتور حسن ابراهيم
تاريخ الاسلام السياسي : ط ٣ - القاهرة ١٩٥٣
- ١٣ - الحصري : ابو اسحاق ابراهيم
أ - زهر الآداب ط ٣ - القاهرة ١٩٥٣
ب - جمع الجواهر في الملح والنوادر
القاهرة - بلا تاريخ
- ١٤ - خفاجي : محمد عبد المنعم
قصص من التاريخ القاهرة - ١٩٥٤
- ١٥ - داغر : يوسف اسعد
مصادر الدراسة الادبية ج ١
صيدا : لبنان - ١٩٥٠
- ١٦ - الراجكوتي : ابو البركات عبد العزيز الميمني
١ - ابن رشيق القاهرة - ١٣٤٣ هـ
٢ - الننف القاهرة - ١٣٤٣ هـ
- ١٧ - زيدان : جرجي
تاريخ آداب اللغة العربية ط ٢ القاهرة ١٩٥٧
- ١٨ - ضيف : الدكتور شوقي
أ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي ط ٣ بيروت ١٩٥٦
ب - الفن ومذاهبه في النثر العربي ط ٣ بيروت ١٩٥٦
- ١٩ - الفاخوري - حنا :
تاريخ الادب العربي حريصاً - لبنان ١٩٥١
- ٢٠ - ف. بارتولد
تاريخ الحضارة الاسلامية ترجمة حمزة طاهر ط ٢ القاهرة ١٩٥٢

- ٢١- عبد الوهاب : حسن حسني
أ - بساط العقيق تونس ١٣٣٠ هـ
ب - المنتخب المدرسي من الادب التونسي - ط ٢ القاهرة ١٩٤٤
ج - خلاصة تاريخ تونس ط ٣ تونس ١٩٥٥
٢٢- علي - محمد كرد رسائل البلغاء ط ٤ القاهرة ١٩٥٤
٢٣- غنيمه : محمد عبد الرحيم تاريخ الجامعات الاسلامية تطوان - ١٩٥٣
٢٤- غوستاف لوبان : حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر ط ٢ القاهرة ١٩٤٨
٢٥- كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ترجمة الدكتور نبيه امين فارس ومنير البعلبكي بيروت ١٩٤٩
٢٦- كرو ابو القاسم محمد أ - الشابي : حياته وشعره ط ٢ بيروت ١٩٥٤
ب - العرب وابن خلدون (سلسلة كتاب البعث رقم ١١) تونس ١٩٥٦
٢٧- الكعك : عثمان البربر (سلسلة كتاب البعث رقم ٥) تونس ١٩٥٦
٢٨- ماكس فانتاجو المعجزة العربية بيروت ١٩٥٤
٢٩- ياقوت : معجم الأدباء القاهرة ١٩٣٦
٣٠- الثريا : مجلة تونسية دوريات ١٩٤٤ - ١٩٤٨
٣١- المباحث : مجلة تونسية د ١٩٤٤ - ١٩٤٨

المفردات

5	المقدمة
	القسم الاول
7	عصر القيروان
	1 - المغرب والاسلام :
9	أ - بلاد المغرب
10	ب - من هم البربر ؟
13	ج - الفتح الاسلامي
15	د - امتزاج العرب والبربر
16	هـ - عصر الولاة
	2 - الدول المستقلة :
18	أ - الادارسة
18	ب - بنو الاغلب
19	ج - الفاطميون
19	د - الصنهاجيون
	3 - عصر الازدهار :
21	تهييد
22	أ - الحياة السياسية
24	ب - اجتماعيا
26	ج - اقتصاديا
28	د - دينيا
	4 - الحياة الثقافية :
31	أ - مراكزها
32	ب - أنواعها
34	ج - امتدادها
37	د - النهضة الادبية
40	هـ - النقد الادبي
42	و - العلوم والفنون

5 - الشعر والنثر :

- أ - الشعر 49
- ب - النثر 52

6 - مميزات الأدب في المغرب والاندلس :

- تمهيد 55
- أ - عناصر التشابه 56
- ب - المميزات 58

القسم الثاني

شخصيات أدبية

- 1 - إبراهيم الحصري 65
- 2 - ابن هانيء 80
- 3 - ابن رشيق 97
- 4 - ابن شرف 107
- المراجع 115
- الفهرس 118 - 119

عصر القبروان / أبو القاسم محمد كرو - ط ٢ - دمشق: دار طلاس، ١٩٨٩ -
الجزء ١، ص ٢٥، سم.

١ - ١١٢٣ ر ٩٥٦ ك روع ٢ - العنوان ٣ - كرو

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ١٩٨٩/٣/١٦٩

رقم الإصدار ٤١٩



هذا الكتاب

لم يلمع في تاريخ المغرب العربي اسم مدينة من مدنه ولا ازدهر عصر من عصوره بعد الفتح الإسلامي إلا أن تاريخها عاصر ازدهار القيروان وازدهر عصرها الذهبي مدة أربعة قرون كاملة ابتدأت من تأسيسها على يد عقبة بن نافع سنة خمسين للهجرة وانتهت بانهارها السيلاني والعلمي والاجتماعي على أيدي القبائل الزاحفة من صعيد مصر عام ١١٤٨ هـ.

وقد تميز كل عصر من عصور حضارة القيروان بعدد من الأسماء البارزة التي طبعت عصرها بطابع شخصيتها وميزته عما سواه بما تميزت به عن المعاصرين لها في السياسة أو الدين أو العلم أو الأدب أو غيرها من محوّل الحياة والفكر والفن.

إننا في هذا الكتاب لم نتجاوز الناحية الأدبية، إلا حيث يقتضي البحث أن نلجأ إلى أخرى لإتمام الصورة، وتكميل الاطار التاريخي.

وقد أضفنا للدراسة في قسمها الثاني نماذج من أفذاذ أدباء القيروان الذين تركوا دويماً ما يزال صداه يتردد في أنحاء العالم العربي رغم مرور ألف عام على تاريخهم، وهم ابن هانئ، متنبى المغرب، وأبو اسحاق الحصري، صاحب زهر الآداب، وابن رشيق صاحب العمدة، وابن شرف صاحب رسائل الانتقاد.. وحسبك هؤلاء برهاناً على ما كان للقيروان من مجد أدبي سامق ومن حضارة راسخة كانت مشعلاً لأمم وأقطار متعددة طيلة أربعة قرون كاملة.

(من المقدمة)

